الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

الاغـــــتراب

فـي شـــعر ابـن درَّاج القســطلي

«دراسة موضوعية فنية»

دكتـــورة

فاطمـة عيسـى الأحـول

المدرس بقسـم الأدب والنقـد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – بكفر الشيخ

فرع جامعة الأزهر

المقدمـــة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . **وبعـــــد**

لم يحظ التراث العربي في الأندلس بما يستحقه من البحث والدراسة، فلا نجافي الحقيقة إذا قلنا أن هذا الجانب من أدبنا العربي لاقى من الإهمال الشيء الكثير على الرغم من أنه تراث جدير بالبحث .

فبدأت أتصفح الدراسات القديمة والحديثة التي كتبت عن هذا الجانب من التراث كي أنطلق من خلالها إلى موضوع يستحق البحث والدراسة ، فوجدت موضوع الاغتراب عند ابن دراج بما يحمله من عواطف جياشة بالصدق والحزن والأسى ، كما وجدت ابن دراج من أفذاذ الأدباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة المقول والإدراك في الأندلس .

فكان هذا بمثابة الشرارة التي أضاءت أمامي الطريق إلى البحث فأخذت أقرأ قراءة جادة حول الموضوع كي أكوِّن فكرة سليمة عنه ، فوجدت أن ابن دراج الأندلسي من الشعراء الذين يستحقون الدراسة ، ومن هذا المنطلق سرت في البحث مستعينة بالله ﷻ .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة ، وفهرسين أولهما للمصادر والمراجع ، والآخر لموضوعات البحث .

التمهيـــد : ويشمل :

أولاً– نبذة عن عصر الشاعر . ثانيًا– أضواء على حياة الشاعر .

الفصل الأول : ويحمل عنوان : « الاغـتراب فـي شـعر ابن دراج المنحـى الموضـوعي» وقد صدرته بتوطئة عن مفهوم الاغتراب، ثم قسمته أربعة محاور.

المحور الأول : الغربة السياسية .

المحور الثاني : الغربة النفسية .

المحور الثالث : الغربة الاجتماعية .

المحور الرابع : الغربة المكانية .

الفصل الثاني : « شعر الاغتراب عند ابن دراج المنحى الفني » وقسمته إلى :

أولاً : المعجم الشعري .

ثانياً : الصورة الشعرية .

ثالثاً : البناء الموسيقي .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة.

وأخيراً كانت الفهارس بقسميها :

أ – فهرس بأهم المصادر والمراجع .

ب – فهرس الموضوعات .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي التكاملي الجامع لمحاسن المناهج الأخرى ، كما اعتمدت أيضاً على تحليل الجانب النفسي حتى تنكشف لنا جوانب هذه الظاهرة (الاغتراب) في شعر القسطلي .

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه ، وأن تكون الإفادة بقدر الجهد .

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

تمهيـــــــد :

أولاً : نبذة عن عصر الشعر

إن أي باحثا يمكنه أن يتناول عَلَماً أو شخصية ما ، دون أن يعرج على البيئة الزمانية والمكانية ، التي نشأ وعاش في أكنافها هذا العَلَم ، وذلك لأن « الأديب تعبير وتصوير لمجتمعه ، فكما أن المجتمع صورة مكبرة لأفراده فالفرد صورة مصغرة لمجتمعه ، فهناك تأثير متبادل بين الفرد والجماعة ، فالفرد يؤثر في الجماعة والعكس بالعكس ، وفي كثير من الحالات تكون الشخصيات الكبرى مرايا شعوبها »(١).

فالإنسان ابن بيئته كما يقول ابن خلدون ، والأفراد صور عاكسة للأماكن والأزمنة التي وُجِدوا فيها ؛ ولذلك يستحيل على من يتناول شخصية كابن دراج أن يهمل في وصف البيئة الأندلسية عامة ، وقرطبة التي عاش فيها صاحبنا خاصة ، وكشف الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية في عصره .

ولا غرابة حينئذ أن نجد بصمات المجتمع الأندلسي ظاهرة بارزة في شعر ابن دراج . فقد كانت الأندلس بيئة مغايرة لبيئة المشرق العربي، من حيث الإنسان والمناخ والموارد البشرية ، بل والطبيعة أيضاً ، وحتى جذور الحضارة الضاربة في عمق الأندلس تختلف في تربتها وتكوينها وكينونتها عن مثيلاتها شرقاً وغرباً ، فهناك التجانس البشري والديني والتنوع الاقتصادي والتغاير الثقافي ، والتميز الفقهي والسياسي الذي حظيت به الأندلس زمانا ومكانا لا مثيل له ، وقد عاش ابن دراج معظم حياته في قرطبة – عاصمة الأندلس ومقر الحكم الإسلامي في أوربا، ومركز الإشعاع الروحي والثقافي ، حيث لم تكن تضاهيها إلا بغداد في المشرق ولذلك

(١) ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي ، تأليف حسان محمد حسان – دار الفكر العربي – بيروت ص ٣٩ .

قيل (١):

بـــأربع فاقـــت الأمصـــار قرطبـــة مـــنهن قنطـــرة الـــوادي وجامعهـــا
هاتـــان ثنتـــان والزهـــراء ثالثـــة والعلـــم أعظـــم شـــيء وهـــو رابعهـــا

فقد كانت قرطبة التي عاش فيها الشاعر أم المدائن، وفيها أعلام العصر، وفرسان النظم والنثر ، بلغت أوج عظمتها وازدهارها منذ أن فتحها المسلمون (سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م) وتواصل وجودهم على أراضيها ، حيث ناف على تسعة قرون أي إلى نهاية (سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢م) تاريخ سقوط الأندلس – الفردوس المفقود – ومن ثمَّ لا يمكن الكشف عن أدب ابن دراج القسطلي ولا عزله أو انتزاعه أيضا عن المناخ العام للأندلس بأكملها وخاصة قرطبة التي ولد وعاش فيها معظم حياته، لأن شخصيته قد تشكلت من تلك البيئة بمختلف جوانبها ومناحيها .

(١) نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب – المقري – تحقيق إحسان عباس – دار صادر - بيروت ١٩٨٨م ، جـ ١ ص ١٤٦ .

الحيـــاة السياســـية

عاش ابن دراج القسطلي في الفترة ما بين سنة ٣٤٨ هـ- ٤٢١م وهي فترة عامرة بالأحداث السياسية حيث شهدت الأندلس « سيطرة الدولة العامرية ، ثم عصر الفتنة ، وسقوط الخلافة الأموية ، وقيام دول الطوائف، وتفاقم الخطر النصراني ، وتعاظم دور اليهود واندلاع النزاعات العرقية الطائفية » (١) .

وجميعها أحداث أثرت بلا شك في خبرته التاريخية وتركت أثارا واضحة في ثنايا أعماله ، حيث رصد بدقة مرحلة الفتن والاضطرابات المتتالية في الأندلس .

وفي أثناء الفترة التي عاش فيها ابن دراج القسطلي تغير الوضع في الأندلس تغيراً جزرياً ، فقد كان الحكم في بادئ الأمر من الناحية الرسمية للخليفة « هشام الثاني » (٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ) الذي بويع بعد موت أبيه المستنصر ، أما من الناحية الحقيقية فقد كان الحكم لمحمد بن أبي عامر الذي عمل حاجباً للخليفة وتلقب بالمنصور ثم لابنه عبد الملك الذي خلف أباه في الحجابة وتلقب بالمظفر ، ثم لابنه الثاني عبد الرحمن ، الذي عمل عَمَل أبيه وأخيه وتلقب بالمأمون ؛ وذلك لأن هشام بويع بالخلافة ، وهو في الثانية عشرة من عمرة ، فلم يكن يستطيع أن يلي الأمر بنفسه ، وتصادف أن كان من رجال القصر وقتئذ ، رجل ذكي طموح هو (محمد بن أبي عامر) الذي تمكن من انتزاع السلطان لنفسه بعد فترة وجيزة (٢) ثم سار ابناه من بعده على سنته ؛ حتى لم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط .

فبعدما كانت الخلافة تجمع بين السلطة الزمنية والروحية جاء المنصور بن أبي عامر ، ووطد سلطانه ، ودعى له على المنابر ، وفي عهده ساد الأمن في جميع أنحاء البلاد ، ووجه غزوات كثيرة نحو الممالك المسيحية المجاورة ،

---

(١) في دراسة التراث د / محمود إسماعيل – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٠٤ ص ٢٣ .

(٢) للتفصيل ينظر : نفح الطيب جـ ١ ص ٥٤٧ وما بعدها . وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء – أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي – دار الكتب العلمية – بيروت جـ ٩ ص ٣٨٦ .

ولم يعرف الهزيمة خلالها قط ، ولم تنكس له راية ، فقد كان محبا للجهاد والغزوات حتى قيل إنه كان يغزو في كل عام مرتين، وكان النصر حليفاً له حتى استحق بجدارة لقب المنصور(١).

وأخيرا مات ابن أبي عامر أثناء عودته من غزوة قشتالة ، ودفن بمدينة سالم ، بعد أن كفن بكفن كان يحمله دائماً في غزواته ، وأمر بأن يذرّ عليه تراب كان يجمعه مما تخلف على جسمه من آثار تلك الغزوات العديدة ، وأوصى بأن يكتب على قبره (٢):

آثـــاره تنبيـــك عـــن أخبـــاره حتـــى كأنـــك بالعيـــان تـــراه

تـــالله لا يـــأتي الزمـــان بمثلـــه أبـــدا ولا يحمـــى الثغـــور ســـواه

وقد خلفه في الحجابة ابنه عبد الملك وتلقب بالظافر ، واتبع سنة أبيه في التفرد بالسلطان ، وحجب الخليفة وإبعاده عن كل شيء ذي أهمية في السياسة أو الحكم ، وكذلك اتبع سنة أبيه في الجهاد والغزو ، فرد اعتداءات ملوك الشمال ، وحافظ على هيبة الدولة وسلامة حدودها ، ثم مات في ريعان شبابه (٣).

وعاشت الأندلس عدة سنوات « شداداً نكدات صهاباً مشؤومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة .... » (٤).

ولا عجب أن نجد أحوال الأدباء والشعراء في هذا الجو الخانق قد ساءت واشتدت حاجاتهم ، ويبدوا أن ابن دراج لبث في قرطبة يعلل نفسه برجاء انقشاع الأزمة وجلاء الفتنة فساير تقلب الدول ، ويبدو أن ابن دراج لم يجد فيها ما كان يصبوا إليه ، فقصد سبتة ، وقد كانت هذه أول رحلة وآخرها لابن دراج خارج الأندلس ، وقد رافق هذا التدهور السياسي تدهور

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – تأليف ابن عذاري المراكشي – دار الثقافة – بيروت ط٣ ، ١٩٨٣م ، جـ ٢ ص ٤١٧ .

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب – أحمد بن عبد الوهاب القرشي – شهاب الدين النويري – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة ، ط : ١ / ١٤٢٣ – جـ ٢٣ ص ٤٠٦ ، وينظر : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٩٨ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . د / أحمد هيكل – دار المعارف ١٩٨٥ – ص ٢٦٦ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت ، ط : ٢ / ١٣٩٩ هـ (ق ١ – جـ ٢ ص ١٧) .

اقتصادي ، وقد شهد ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) ما كان واقعا في ذلك العصر ، فأنشد معبراً في أبلغ صورة تهكمية ، يقول (١):

مِمَّـــا يُزَهِّـــدُني في أَرْضِ أَنْـــدَلُسٍ سَـــماعُ مُقْتَـــدِرٍ فيهـــا وَمُعْتَضِـــدِ
أَلْقـــابُ مَمْلَكَـــةٍ في غَيْـــرِ مَوْضِـــعِها كـــالْهِرِ يَحْكـــي انْتِفاخـــاً صَـــوْلَةَ الأَسَـــدِ

فمن السخرية أن يتآمر أحدهم في الصباح ، فلا يحين المساء إلا وقد أزيح عن الإمارة وابتدرها غيره فالواحد منهم يصبح أميراً ويمسي أسيراً ، إنها « فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا هذا مثلها أربعة رجال في ثلاثة أيام ... كلهم يتمسى بإمرة أمير المؤمنين » (٢).

فهذه الأمور تدل دلالة واضحة وقاطعة ، على ذلك الواقع المزري ... وتلك الفوضى السياسية الذي عاشتها قرطبة خاصة ، والأندلس عامة في ذلك العصر (٣).

إنه شكل لا مثيل له من الظلم والجور والاستبداد والفساد والقتل والدمار الذي سوف ينعكس من غير شك على مختلف الجوانب الأخرى ، فهو عصر تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل ، إنها ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) ديوان ابن رشيق القيرواني – دار الثقافة – بيروت ، ط : ١ / ١٩٨٠م ، ص ٦٠ .
(٢) نقط العروس في تواريخ الخلفاء – ابن حزم الأندلسي ، تحقيق شوقي ضيف – نشر جامعة فؤاد الأول – القاهرة ، ط : ١٩٥١ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، رسائل ابن حزم الأندلسي . أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي القرطبي (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق إحسان عباس – المؤسسة العربية للنشر ط ٢ ، ١٩٨٧م جـ٢ ص٣١ .
(٣) ابن حزم الفيلسوف – محمد عبد الله عنان – مجلة العربي الكويتية – العدد ٦٨ – يوليو ١٩٦٤م ، ص ٨٠ – ٨٥ .

الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصاديـة

عادت إلى المجتمع الأندلسي في فترة الحجابة والخلافة الكثير من الأمراض التي كان قد برئ منها قبل ذلك ، فقد أدى استخدام المنصور للمرتزقة من البربر والصقالبة ومسيحي الأسبان ، إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش . كذلك أدى سلوك المنصور في الاستبداد بالأمر والاستئثار بالحكم إلى نوع من الانقسام في المجتمع الأندلسي .

* **وليس من شك** في أن مسلك المنصور في الوصول إلى السلطان ونجاحه في السيطرة على كل شيء ، قد أدى إلى تفشي روح الطمع وشيوع التطلع إلى الغلبة ، وخاصة بين هؤلاء الذين كانوا يرون أنه دونهم في المنبت والاستعداد ، وغير ذلك مما يؤهل للسلطان والحكم.

هذا وقد أدت الانتصارات الكثيرة إلى وفرة الغنائم وكثرة الثروات، مما ساعد على انتشار اللهو وشيوع الإقبال على الملذات .

وقد كان المنصور محبا لتقليد الخلفاء والأمراء الأمويين ، بل ربما كان ميالاً إلى منافستهم والتفوق عليهم، لهذا اهتم بالتعمير والإنشاء مثلهم ، فبنى مدينة الزاهرة (١) ، وجعلها مقر حكمه وموطن رجاله وحرسه، وذلك ليقابل بها الزهراء التي بناها الناصر والتي كانت مقر الخليفة الأسمى هشام ، وأنشأ المنصور كذلك المدينة العامرة ، وجملها بالبساتين الرائعة والقصور الفخمة ، وله غير ذلك كثير من أعمال البناء والإنشاء في القناطر والقصور وغيرها (٢) .

كما حفل ذلك العصر أيضا بمظاهر فساد شنيعة ، كإرهاق الرعية وإلزامهم بدفع المكوس والضرائب الجائرة ، إضافة إلى نهب أموال الناس من طرف الولاة والأمراء لإنفاقها على مصالحهم الذاتية ، لتبذيرها في التسلية ومجالس اللهو والبذخ ، وشراء الجواري وتشييد القصور وإما دفعها إتاوات

(١) الذخيرة لابن بسام . ق ٤ م ١ ص ١٧ ، وينظر نهاية الأدب في فنون الأدب جـ٢٣ ص ٤٠٦.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٩١ ، والبيان المغرب جـ ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

لملوك الإفرنجة تزلفا وتذللا لهم ، حتى يضمنوا بقاءهم في الحكم ، أو أنهم يضمرون بها نار الحروب القائمة على أشدها بين هذه الأسر الحاكمة (١).

كما يذكر كثير من المؤرخين، أن اللصوصية والإقطاع والقتل والنهب قد انتشر بشكل كبير فسيطر الزعر ودبّ الهلع وانعدم الأمن وغدت الحياة الاجتماعية مهلهلة الأوصال ، كما أضحت الحياة الاقتصادية بالغة السوء ؛ إذ ساد الركود في الحياة التجارية والصناعية ، وانعدم تداول العملة الثابتة والحقيقية ، مما تسبب في نكسة اجتماعية واقتصادية شديدة (٢).

وطبيعي أن تنعكس كل هذه الأمور على نفوس الناس ، فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعمها بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة والبحث عن الاستقرار .

وهكذا كانت الحياة الاجتماعية في الأندلس في الفترة التي عاش فيها شاعرنا.

لهذا كله شاع في المجتمع الأندلسي آنذاك ، اللهو والنفاق والانطواء والحزن والشكوى ، وكلها ردود فعل للاضطراب والقلق وانهيار القيم والشعور بالمرارة والإحساس بالضياع .

---

(١) قصة العرب في أسبانيا – ستانلي لين بول – ترجمة علي الجارم – جزيرة الروضة ١٩٤٤ م ، ص ١٥٩ .

(٢) قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري الحياة الاقتصادية والاجتماعية . محمد عبد الوهاب – الدار التونسية ١٩٨٤م ، ص ٩١ – ٩٥ .

الحيـــاة الفكريـــة والأدبيـــة

لعل من العجيب والغريب حقاً ، أن تلك الصورة القاتمة سياسيا واجتماعيا ، كان لها صورة مغايرة ثقافيا ؛ حيث إن جانب الفكر والأدب كان ذهبياً ، في حين كان الوضع السياسي والاجتماعي متدهوراً مزريا ، حيث حفل ذلك العصر بحصاد ثقافي فائق ، من إنشاء المكتبات ، وجلب أو ترجمة الكتب ، وتوفير المصادر والتأليف في شتى التخصصات العلمية والأدبية ، « وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف أن يكون الملوك من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء ، وتكون قصورهم زاهرة بالعلوم والآداب» (١).

وقد قال ابن حزم عن الخليفة الحكم المستنصر بالله (ت ٣٦٦هـ): « إنه كان محبا للعلم وقد ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » (٢).

فلقد كانت الأندلس عامة وقرطبة التي عاش فيها الشاعر معظم حياته وكانت لها الأثر الواضح عليه مهوى أفئدة النبغاء وملجأ الحكماء والبلغاء ومحط رجال العلماء من داخل الأندلس وخارجها ، حيث كانت كعبة العلوم والفنون، وقد أطلق على قرطبة في عهد الحكم «دار العلوم» ولا غرو أن نجد قمما شامخة ، وأعلاما شاهقة ، ورواداً أفذاذاً موسوعيين أمثال « ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) ، وابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ، وابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) ، والبكري (٤٨٧هـ) ، وابن شهيد (ت ٤٢٦هـ) ، والحميدي (ت ٤٨٨هـ) ، وابن دراج (ت ٤٢٢ هـ) ، وابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) . وغير هؤلاء ممن نبغ في علوم الشريعة والتاريخ والآداب وسائر العلوم الإنسانية (٣).

أما الدراسات اللغوية فقد وجد لها نشاط كبير ، والتي كان من أهم

---

(١) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي– القاهرة ، ط : ٢ / ١٩٦٩ ص ٤٢٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام هارون – دار المعارف – مصر ، ط : / ١٩٦٢ ص ١٠٠ .

(٣) نفح الطيب . المقري جـ ٤ ص ١٦٨ ، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس – طبعة مركز الملك فيصل – الرياض ، ط : ١ / ١٩٩٣م ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ .

أسبابه قدوم اللغوي المشرقي الأديب ، صاعد البغدادي الذي وفد على الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر ، فتلقاه تلقياً حسناً ، متشبها بالناصر في تلقيه لأبي علي القالي البغدادي .

وقد كان كتاب الفصوص الذي ألفه صاعد ذا أثر كبير في تغذية الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس ، وكافأه المنصور عليه مكافأة كبيرة قيل إنها خمسة آلاف دينار[١] ،وقد تتبع هذا الكتاب أدباء الأندلس بالنقد والتجريح.

هذا ولا تذكر الثقافة الأندلسية في فترة الحجابة دون أن ننوه بابن الفرضي وكتابه « تاريخ علماء الأندلس » فهذا الكتاب من أشهر ما أخرجت الأندلس من ذخائر ، وقد ألف ابن الفرضي عدة كتب ضاعت من تراث الأندلس مثل «تاريخ شعراء الأندلس» وكتاب في «المؤتلف والمختلف»[٢] .

أما الشعر فعاد أفقر تراثًا وأضيق ميدانا ، فظاهرة تأثره بالنهضة العلمية واستخدامه للمعاني الفلسفية ، مما كان يبشر بظهور شعر فلسفي ، هذه الظاهرة قد اختفت في فترة الحجابة ، وعاد الشعر إلى معانيه المألوفة وموضوعاته الغنائية المعروفة ، وليس يصعب تعليل اختفاء هذه الظاهرة بعد أن عرفنا ما كان في عهد الحجابة من محاربة الفلسفة ، فكانت الاستبدادية الفكرية في فترة الحجابة سببا في اختفاء هذا اللون من ألوان الشعر على أنه إذا كان الشعر قد سار في تلك الفترة على اتجاهاته المعروفة ، واستمر على أغراضه المألوفة ؛ وكان بعض الأغراض أوفر حظاً وأشد نشاطاً ؛ وذلك نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التي تميزت بها الحياة الأندلسية في تلك الفترة .

ثانيا : أضواء على حياة ابن دراج :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن العاصي بن دراج القسطلي ، وكنيته أبو عمر ، وكانت ولادته في شهر محرم سنة (٣٤٧ هـ – ٩٥٨ م) في بيت ذي مكانة مرموقة، وهو معدود في الأندلس

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . أبو العباس شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق إحسان عباس – دار صادر – بيروت ، ط : ١٩٠٠ ، جـ ٢ ص ٤٨٩ .

(٢) الأدب الأندلسي .د / أحمد هيكل ص ٢٧٢ .

من جملة العلماء والمتقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء[١].

كما كانت أسرة ابن دراج نبيلة عظيمة الشأن ، حتى أن بلدة قسطلة حمل اسم أسرته فعرف « بقسطلة دراج » [٢] .

« فقد كان جده عظيم الشأن ، إذ هو وأولاده يتولون رئاسة هذه المدينة، وبنو دراج ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة وهم من البربر الذين دخلوا الأندلس في فترة الفتح حينما دخل « طارق بن زياد » الأندلس ، وبالرغم من هذا إلا أننا نلاحظ في شعر ابن دراج روح الأندلس ، فقد كان أندلسيا خالصاً ولا توجد أي إشارة عن نسبه البربري ، بل إنه لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري حينما أعلن الثورة على المنصور بن أبي عامر ، مهدداً إياه بسوء المصير على يد الجيوش العامرية ، ولسنا نعرف عن آبائه المباشرين شيئاً كثيراً إلا أننا نرى ابن حزم يخص أباه بالذكر في حديثه عن رهط الشاعر فيقول [٣] : « وكان منهم محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان من ولد زر بن عيسى بن دراج » .

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب . أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) تحقيق إبراهيم الإبياري جـ ١ ص ١٥٦ ، الوافي بالوفيات – تأليف صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث بيروت ، جـ ٨ ص ٣٣ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . د / أحمد هيكل ص ٣٠٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب . أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق لجنة من العلماء – دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ / ١٩٨٣ – ١٤٠٣ ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

*** نشـــأة ابن دراج :**

يتضح من تتبع حياة ابن دراج أن نشأته الأولى لم تتعرض لها التراجم ، فالمراجع التي ترجمت له لا تجود بالشيء الكثير من أخبار طفولته وأساتذته وتعليمه وغير ذلك ، إذ يلفها غموض يمتد من مولده إلى ظهوره فجأة في بلاط « المنصور بن أبي عامر » (١)، مما جعل حديث الدارسين عن هذه الفترة يعتمد على الظن حيناً وعلى التخمين أحياناً أخرى، حيث يقول د / محمود علي مكي : « وأغلب الظن أن ابن دراج بدأ حياته تلميذاً يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم ، ولعل دراسته في تلك الفترة المبكرة من حياته لم تكن تختلف عما يتلقاه أمثاله من الصبيان من حفظ القرآن وإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه » (٢).

وعلى أية حال فابن دراج بعد تلك الطفولة التي لا نعرف عنها الشيء الكثير سوى تفوقه وبراعته ، عندما نضجت موهبته وفاضت شاعريته تطلع إلى العاصمة الأندلسية قرطبة حيث المنصور بن أبي عامر الذي مدحه بقصيدة أثارت الحساد والحاقدين حوله ، فوشوا بوشاية للمنصور ، فاتهموه بالسرقة والانتحال واستطاع شاعرنا أن يتخلص من تلك التهمة ، إذ طلب منه المنصور أن ينظم شعراً في موضوع اقترحه المنصور ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه ، وبذلك زالت تهمة السرقة عنه ، وأكد شاعريته أيضا بالقصائد التي مدح بها المنصور ، وهكذا تأكدت منزلة الشاعر في بلاط المنصور فلم يكن في ديوان الشعراء فحسب ، بل ما لبث أن ضُمَّ إلى ديوان الإنشاء ؛ لتمكنه من صناعة النثر إلى جانب تمكنه من صناعة الشعر ... (٣) .

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ابن خلكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية ، ط : ١ / ١٩٤٨م ، ص ٦١٦ .

(٢) ديوان ابن دراج . د / محمود علي مكي ، ط : ١ / ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م ، المكتب الإسلامي ص ٣٦

(٣) في الأدب الأندلسي . د / أحمد هيكل ص ٣٠٥ وما بعدها .

وقد تميز ابن دراج بكثرة شعره ، فديوانه ضخم ويغلب غرض المديح على معظم قصائده ، وقد لاحظت أن هذه الأبيات أو القصائد التي اشتمل عليها الديوان يغلب عليها الحديث عن الغربة والاغتراب وألم الفراق والبعد عن الأحبة وعن الأولاد والزوجة ، والحنين إلى الوطن ، فلا نكاد نعثر على قصيدة قالها في المديح إلا وفيها ذكر الألم والاغتراب والحنين ، ولكل غربة أسبابها وسبب معاناة ابن دراج من هذه الغربة على حد ما ذكره شوقي ضيف « أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها ، أي أنه ألف العيش الرغد والحياة الناعمة ، فلعل سلطان قومه قد زال ، ولعل رئاستهم قد انتقلت إلى غيرهم ، ولكن ابن دراج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء » (١) .

فلم يجد ابن دراج بعد أن ضاق به الحال إلا أن يضرب في مناكب الأرض ، وفي ذلك يقول (٢) :

فَـــإنْ غَرَّبَـــتْ أرض المغـــاربِ مَـــوئلي وأَنْكَرَنِـــي فِيهَـــا خَلـــيطٌ وخِـــلاّنُ
فكَـــمْ رَحَّبَـــتْ أَرْضُ العِـــراقِ بمقـــدمي وأَجْزَلَـــتِ البُشْـــرى عَلـــيَّ خُراســـانُ

ومعروف أيضا أنه كان ذا عيال كثيرين وأسرة كبيرة ، ولعل ذلك كان من دوافع إكثاره من المدح حتى ينال ما يسد به حاجة العيال ، وقد صرح بذلك في قوله (٣) :

وتَحْـــتَ جَنَـــاحَيْ مَقْـــدِمِي وتَعَطُّفِـــي ثمـــانٍ وَعَالَـــتْ بـــالْبَنِينَ إِلَـــى الشَّـــطْرِ

ولهذا كان ابن دراج يتنقل بين بلدان كثيرة ، ولكنه لم يستطع نسيان موطنه وأهله ، فيتضاعف حنينه ويشتد الشوق عليه ، فقد سيطرت عليه الكآبة وفارقته ابتسامته وخيَّم عليه الحزن والأسى ، فهو دائما يبكي فراق أهله وبعده عن وطنه ودياره ، فصوّر ذلك كله في شعره بأفكار ملونة ، وأساليب متنوعة ، وبطرق مختلفة تتفاوت فيها قوة العاطفة ورنة الأسى ولهفة اللقاء .

(١) في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . د / أحمد هيكل ص ٣٠٩ .
(٢) ديوان ابن دراج ص ٧٥ .
(٣) الديوان ص ١٥٧ – ١٦٠ .

فابن دراج شاعر أندلسي فحل ، شاعر قضى معظم حياته مغتربا عن وطنه وأهله ، متنقلاً من مدينة إلى مدينة ، ومن حاكم إلى آخر ، هكذا ببساطة عاش شاعرنا هذه الحياة التي تجرع فيها ألم البعد والفراق عن أهله وذويه فهو في غربة دائمة وفي شوق دائم ودموع غالبة فلا نبالغ حينما نقول إنه لا يخلو قصيدة من قصائده إلا وقد وردت فيها كلمة غريب، وغربة ومغترب ، فهو خلال هذه القصائد يرتفع صوت ابن دراج المرتبط بالأهل والشعور بقيمة الوطن، إضافة إلى المعاني التي تثور في نفس المغترب ، وإن كانت البلاد التي ارتحل إليها في أحسن أحوالها ، فهو دائما يذكر ما يصيبه من خير في تلك البلاد .

وكذلك كانت لابن دراج شهرة كبيرة في الشرق ، فقد ذكره الثعالبي ونقل بعض شعره ، وقال عنه (١) : « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو من الشعراء الفحول ، وكان يجيد ما ينظم ويقول » .

والذي لاشك فيه بعد ذلك كله أن ابن دراج كان من شعراء الصف الأول بين الأندلسيين، بل إنه من شعراء الصف الأول بين شعراء العربية الأقدمين .

(١) يتيمة الدهر . للثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ١٣٧٥ – ١٣٨٧ هـ ، جـ ٢ ص ١١٦ . ، وينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب – عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) تحقيق محمد الآرناؤوط – دار كثير – دمشق بيروت ط ١ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م . جـ٥ ص١٠٤ .

الفصـــــل الأول

الاغـتراب في شـعر ابن دراج

« المنحى الموضوعي »

مدخل : مفهـوم الاغـتراب

يعد مفهوم الاغتراب من أكثر المفاهيم التصاقا بالإنسان « فهو من طبيعته يختلف من إنسان إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ، ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه ، وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات ، وبطبيعة العصر بما يحتويه من قيم وأعراف »(١).

وقد استخدم بطرق مختلفة ومعاني عديدة حتى أصبح يعاني من الغموض الشديد (٢).

ولكن الاستخدامات المعاصرة لمصطلح الاغتراب تكاد تتفق على أن الاغتراب هو التباعد أو التنافر ، أو عدم الحميمية مع الآخر ، أو الانفصال عن شيء ما ، وهذا الانفصال عادة ما يكون انفصالاً عن الذات، أو عن المجتمع ، حيث يميز علماء النفس بين نوعين من الاغتراب –الاغتراب عن النفس– عن الذات ، والاغتراب عن المجتمع .

١ – الاغـــتراب عـن الـــذات :

يعني انفصال الفرد عن ذاته الحقيقية التي يحس بها ويصطنع ذاتا أخرى زائفة ، وذلك بفعل تأثير المجتمع وضغوطاته المتمثلة في الأعراف والتقاليد والنظم ، وتناقضات هذا المجتمع ، وهذا يؤدي إلى طمس الذات الحقيقية (٣) .

٢ – الاغـــتراب عـن المجتمـع :

---

(١) الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (١٩٤٥ – ١٩٦٢) ، تأليف / عمر أبو قرورة– منشورات جامعة باتنة ص ١٣ .

(٢) الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري – سمير سلامي – دار الينابيع – دمشق ، ط : ١ / ٢٠٠٠ ص ١٣ .

(٣) الاغتراب والإبداع الفني د / محمد عباس يوسف – دار غريب للطباعة والنشر، ط : ٢٠٠٤ ص ٢٢ .

وهو أن يرفض الفرد صراحة كل أو بعض أو جل قيم المجتمع وأعرافه وتقاليده ، وقد يقوم بإبراز سلبياته وتناقضاته وينأى بنفسه عن إقامة صلات اجتماعية أو علاقات ودية مع الآخرين (١).

وتتفق معظم الدراسات المعاصرة حول الاغتراب على أنه ذو أبعاد متنوعة تتمثل في العجز، العزلة ، اللامعيارية ، فقدان المعنى أو المغزى ، معتمدين في ذلك على تصنيفات – ميلفين سيمان (M . Seemaa) الشهيرة ، وهي تصنيفات ذات أبعاد سيكوسيولوجية « نفسية،واجتماعية » .

٣ – الاغـــتراب عـن النفـس :

ويتضمن هذا العنصر شعور الفرد بالانفصال عن ذاته ، وعدم الانتماء إليها ، وتعد دراسات « إيريك فروم » من أكثر الدراسات التي تناولت هذا الجانب من الاغتراب (٢).

*** أمـا فـي مجـــال اللغـــة :**

فجاء في لسان العرب « غربت الشمس تغرب غروبا ، غابت في المغرب ، والغربة النزوح عن الوطن والاغتراب » (٣).

ونجد المعاني نفسها في مختار الصحاح (٤) في مادة « غَرُبَ » تقول : « تَغَرَّب ، واغترب »فهو غريب ، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه ، والتغريب « النفي عن البلد » « وأغرَب » جاء بشيء غريب ، ويقال : « أَغرُب » عني ، أي : تباعد .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) للتفصيل ينظر : مجلة عالم الفكر – العدد ١٠ (١ أبريل ١٩٧٩ م) بعنوان : الاغتراب اصطلاحاً ومفهوما وواقعاً . تأليف / قيس النوري .

(٣) لسان العرب ابن منظور – دار صادر – بيروت ، مادة (غرب) . جـ ١١ ص ٢٤ وما بعدها .

(٤) مختار الصحاح . زين الدين أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى سنة ٦٦٦ هـ) ، تحقيق / يوسف الشيخ محمد – المكتبة العصرية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م ، جـ ١ ص ٢٢٥ .

فهذه بعض المعاني التي وردت عن مفهوم الاغتراب في بعض المعاجم العربية ، أما إذا نظرنا إلى مفهوم هذا المصطلح عند غير العرب ، أي من وجهة عالمية سوف نجده يتعدد ويتلون بتلون المفاهيم واللغات والاتجاهات .

فكلمة اغتراب (Alienation) في اللغة الإنكليزية ، و(Alienation) في اللغة الفرنسية لهما أصل لاتيني واحد هو (Alienation) ، والمتتبع لاستخدامات هذا الاصطلاح في اللغتين يجد تماثلاً كبيراً بينهما ؛ لأن كافة الاستخدامات مستمدة من الأصل اللاتيني المشترك ؛ ولذا يمكننا الحديث عن معاني هذا المصطلح في اللغتين معاً » (١).

وقد وجدت ثلاث نقاط تتعلق بمعنى الاغتراب وهي :

١ – قد يرتبط أحد الاستخدامات كلمة الاغتراب (Alienation) بما يتعلق بالملكية .

٢ – لفظ الاغتراب بمعنى الغربة بين البشر (Alienate)يفيد معنى فتور علاقة ودية مع شخص آخر .

٣ – ترتبط كلمة الاغتراب بالغربة (Enttremung) وهذا الاصطلاح يعني التغريب .

وعندما ننتقل إلى البحث عن معنى الغربة والاغتراب في بعض كتب التراث نجد أن معنى الغربة والاغتراب لا يبعد عن المعنى المعجمي، فأبو الفرج الأصبهاني في كتابه أدب الغرباء يرى أن الغريب هو كل مشرد عن وطنه ، ونازح عن داره وإخوانه ، يقول (٢) :

« من شأن الغرباء في الأسفار من نزحت به الدار عن إخوانه وأترابه ، إذا دخل موضعا مذكوراً ومشهداً مشهوراً أن يجعل لنفسه فيه أثراً تبركا دوي

(١) الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري ص ٣٢ .
(٢) أدب الغرباء . لأبي الفرج الأصبهاني ، تحقيق د / صلاح الدين المنجد – دار الكتاب الجديد – بيروت – لبنان ١٩٧٢ م ، ص ٢٣ .

الغربة » .

ويقول التوحيدي في كتابه الإشارات [١] : « بأن الغربة غربة نأى عن الوطن » إلى أن قال : « فأين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه ، وقلّ حظه ونصيبه وسكته ، وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان » .

وقد تناول بعض الكتاب في العصر الحديث مصطلح (الاغتراب) فنرى الدكتور ماهر فهمي يقول [٢] :

« الغربة هي النزوح عن الوطن والابتعاد عن الأهل والديار ، يعني أن يشعر المرء بابتعاده عن مكان نشأته وفراقه لذويه الذين يرتبط معهم نفسيا وعاطفيا واجتماعيا ، ويبدو أن الإنسان منذ بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروبا من الإحساس بالغربة ، حتى لقد تكونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس » .

ومن هنا يتضح لنا : أن الاغتراب والغربة التي يعيشها المرء قد يكون مجبوراً عليها كاغتراب المنفى ــ أو بسبب الحروب والفتن ....

وقد يكون مخيراً فيها كأن يكون محباً في الانتقال من بلد إلى بلد ، أو بحثا عن المال والثروة .....

وستتكفل الصفحات التالية بمعالجة هذه المحاور من الناحية الموضوعية، حتى إذا انتهينا من رصدها – أشفعناها بدراسة فنية لمعالجة ظاهرة الاغتراب عند ابن دراج .

المحـــور الأول : الغربـــة السياســـية

إذا نظرنا إلى معنى « السياسة » وجدنا أنها تعني : القيام على الشيء بما يصلحه ، والقائم بالشيء بغرض إصلاحه هو الوالي أو الحاكم في الدولة

(١) الإشارات الإلهية . لأبي حيان التوحيدي ، تحقيق / عبد الرحمن البدوي – دار الثقافة – بيروت ١٩٧٣ م ، ص ١٤١ .

(٢) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث . د / ماهر حسن فهمي – معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠ م ، ص ٧ وما بعدها .

المتصرف فيها ومالك أمر الرعية ، فإذا لم يصلح الحاكم أمر رعيته ، ولم يسمع ما يسوؤهم ، سينتج عن ذلك الشعور بالغربة ، خاصـــة إذا كان ذلك الشخص ممن ألـــف الاقـــتراب من بلاط الحكام، ولكن انتشار الغدر والخيانة من قبل أولئك الحكام جعل ابن دراج يشعر بغربة سياسية بسبب الفتنة الشنعاء التي حدثت في زمن ابن دراج ، يقول أحد الباحثين[١]: « مثل هذه الأمور جعلت شاعراً كابن دراج على فحولته ، ومتانة نسجه الشعري وحساسية مزاجه ، واستواء خلقه ، وترفعه عن المجون والتحرر ، رجلاً متشدداً كثير التنقل والارتحال براً وبحراً بين حكام الطوائف ، ليخطب ودَّ المقربين منهم للشعراء والمشجعين لهم بالهدايا والأموال ، علَّه يجد في رحابهم ما يفي بجوانحه وحاجات أسرته المادية والمعنوية » .

هذه الفتنة وهذه الأجواء المشحونة بالغدر جعلت ابن دراج مغترباً كثيراً « فقد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة ، ولكن تلك الحادثة أثرت في نفسيته وشعره ، وتحولت به تحولاً ما لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها [٢] .

(١) قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف . د / أشرف محمود نجا – دار الوفاء للطباعة – الطبعة الأولى ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي . د / إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت ١٩٦٩ م – الطبعة الثانية ص ٢١٣ .

ومع هذا فقد عبر ابن دراج عن غربته وعن مدى حاجته للاستقرار مما دفعه إلى أن ينتقل ، فشعر بغربة سياسية ، لأنه يكافأ من قبل هؤلاء الحكام بما يستحق من كرم وحسن معاملة ، فيضطر إلى الرحيل ليعيش في عالم حزين ذليل ، فقد كان شاعرنا يعيش في تلك الأراضي كالأرجوحة التي تميل به في كل مكان ، حيث كانت الفتنة البربرية الشنعاء سبباً في تمزيق كيان الدولة الأندلسية ، كما كانت – أيضا – عاملاً في تمزيق شمل الأندلسيين بصفة عامة ، وشمل ابن دراج بصفة خاصة ، إذ جعلته يشعر بأنه غريب في كل مكان ، وعند أي حاكم أو ملك ، وما أسوأ تلك الحياة ، غير أن ابن دراج استطاع التقاط الكلمات التي تجول في خاطره ، فعبر عن إحساسه مادحاً أولئك الملوك بأنهم قد أنجدوه وأبعدوه عن حياة الغربة ، وهذا ليس أمراً حقيقياً ، وإن كان فهو لفترة محدودة ، فحين تنقلب عليه الأمور يعود إلى سابق عهده مغترباً .

ومن الأبيات التي تمثلت فيها غربة ابن دراج السياسية قوله في المنصور بن أبي عامر (سنة ٣٨٢ هـ) (١):

إِلَيْكَ منكَ فرارُ الخائفِ الوَجِلِ وَفِي يَديكَ أَمانُ الفارسِ البَطَلِ
تقابَلَتْ نحوَكَ الآفاقُ واجْتَمَعَتْ عَلَى يمينِكَ شَتَّى الطُّرْقِ والسُّبُلِ

فهذه الأبيات تحمل إلى جانب المديح طلب الأمن والاستقرار في ظل المنصور بن أبي عامر بعيداً عن الغربة والتشرد ، فالخائف الذي يفر أو يهرب من شيء يرعبه يتجه إليه ، وكذلك الأمان الذي يهفو إليه الفارس يجده في كنف المنصور ، كما أن جميع الآمال قد اجتمعت وتحققت وترابط شملها في حمى المنصور بعد أن كانت متفرقة السبل .

ونرى نبرة الأمل والتفاؤل تعلو بالخير والسرور في ظل محمد بن أبي عامر ، فكم كانت نفس الشاعر تحلم وتتمنى السرور والاستقرار مع أن عينه

(١) ديوان ابن دراج ص ٤١٢ .

كانت تعشق الفرار ، فقد حان لها الوقت أن تهنأ وتقر بكل ما تريد أن تقر به فيقول (١) :

فـــآنَ يَـــانفسُ أَنْ تُسَـــرِّي بكـــلِّ مَـــا شـــئتِ أَن تُسَـــرِّي
وحـــانَ يَـــا عَـــينُ أَن تَقَـــرِّي بكُـــلِّ مَـــا شـــئتِ أن تَقَـــرِّي
غيـــثُ ســـحابٍ وغيـــثُ جـــود وطيـــبُ عَـــرْفٍ وطيـــبُ ذِكْـــرِ

ونرى المظفر يفرج هَمّ الشاعر ويمحو عنه ضيقه ، ذلك الهم الذي أثقل الدهر به كاهله ، فأصاب الصميم ، وهذا الهم هو الغربة ، وكربة الرحيل والانتقال ، فهو بهذا التفريج أزال عنه الظلم والحزن ، هذا الظلم الذي طال في الإحاطة به حتى انغمس في بحور الحزن والأسى ، ولكن المظفر أخرجه من ذلك الهم بجوده وكرمه ، فسقاه كأس النعيم وهو القرب منه ، فيقول (٢) :

أَنـــتَ الَّـــذِي فَرَّجْـــتَ عَنِّـــي كُرْبَـــةً للـــدهر قَـــدْ سَـــدَّتْ عَلَـــيَّ رِتَاجَهَـــا
وجلـــوتَ لـــي فَلَـــقَ المُنـــى مـــن ليلـــة طاوَلْـــتَ فِـــي ظُلَـــمِ الأَســـى إدلاجَهَـــا
وســـقيتَنِي مـــن جـــودِ كَفِّـــكَ مُنعِمـــاً كأْســـاً وجـــدتُ مـــن الحيـــاةِ مِزاجَهَـــا

ونراه يقول في المرتضى آخر ملوك بني مروان ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، أنه إيواء الغريب وستره ، ولذته في تقديم العون والمساعدة للفقراء ، يقول (٣) :

مَســـرَّتُهُ مـــأْوى الغريـــبِ وسِـــتْرُهُ ولَذَّتُـــهُ خَيْـــرُ المُقِـــلِّ ورِفْـــدُهُ

ويستبشر القسطلي بالخير والاستقرار في رحاب المنذر ، فلا رحيل في النهار ولا سرى في الليل ، لأن حاجب الشمس وهو الخليفة المنذر سيحجب عنهم الترحال في دياجي الليل المظلم ، فيقول (٤) :

(١) الديوان ص ٣٠ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .
(٣) السابق ص ٨٢ .
(٤) الديوان ص ١٢٤ .

بُشْراكَ مِنْ طُولِ التَّرَحُّلِ والسُّرى صَبِحٌ بِرَوْحِ السَّفْرِ لاحَ فأَسْفَرا
مِنْ حاجِبِ الشَّمسِ الَّذِي حَجَبَ الدجى فَجراً بأَنهارِ النَّدى مُتفجِّراً

فالشاعر قد تشرد في بقاع الأرض وآلمته المصائب والنوائب وهو بحاجة ماسة إلى من يأويه ويواسيه ويداوي جروحه وآلامه ؛ ولذلك حط رحاله عند المظفر الذي أمل أن يسقيه من كأس الحياة ، ويرويه بعد ظمأ الغربة والتشرد ، فيقول في المظفر يحيى بن منصور سنة ٤١٢ هـ [١] :

تُشَرِّدُ آفاقُ البلادِ فتُؤْوِنا وتَجْرَحُ أَيدِي النائباتِ فتَأْسُونا
تُداوونَ مِن ريبِ الزمانِ فتَشْفَوْنا وتسقُونَ مِن كَأْسِ الحياةِ فتُرْوِونا

ويخاطب الشاعر المظفر منذر بن يحيى قائلاً : إن الغربة والنزوح عن الوطن أمر صعب ومؤلم ، كما أن الرجوع والاستقرار في الوطن أمر بدا صعبا إلا في ظل المظفر ، فقد أغدق عليهم من كرمه وعطاياه من بعد ظمأ وعطش عاشوا فيه سنيناً طويلة ، فيقول [٢] :

فإنْ تُؤْوِ منها يَا مُظَفَّرُ غربةً فنازحَةُ الأَوطانِ مُؤْيِسَةُ الرَّجْعِ
وإن أَعلقَتْ في حبلِ مُلْكِكَ حَبْلَها فحبلٌ من الأَحبابِ مُنْصَرِمُ القَطْعِ
وإن أَخصَبَتْ في زَرْعِ نعماكَ رَعْيَها فكَمْ قَدْ تخطَّتْ واديا غَيْرَ ذي زَرْعِ
وإن أرفَهَتْ في بحرِ جودِكَ شِرْبَها فَمِنْ ظِمْءِ عَشْرٍ في الهجيرِ إلى تِسْعِ

ويقول في المنذر بن يحيى [٣] :

وأنتُمْ سَقَيْتُمْ ثَرَاةَ اغْتِرابي سِجالَ الغَمامِ وصَوْبَ الغَوادي

ولذلك نراه يهنئ كل غريب تغرب في البلاد بأن غربته ستنقضي لأنه سينزل عند المنذر ، يقول [٤]:

وهنيئاً لَنَا وللدِّينِ والدُّنْـ ـيا وللبِيضِ والقَنَا والجيادِ

(١) الديوان ص ٢٤١ .
(٢) الديوان ص ٢٥٧ .
(٣) الديوان ص ٤٩٩ .
(٤) الديوان ص ٢٥١ .

وغريـــبٍ تهـــوي بـــهِ كُـــلُّ أَرضٍ وشـــريدٍ ينبُـــو بـــهِ كُـــلُّ وادِ

ويقول أيضاً (١) :

وجَـــزَاءُ مَـــا آوَيْـــتَ وَحْـــشَ تَغَرُّبِـــي وفَسَـــحْتَ رَوْضَـــكَ لارْتِعَـــاءِ سَـــوَامِي

وفَعَمْـــتَ لـــي بَحْـــرَ الحيـــاةِ مُبـــادِراً بحيـــاةِ ذابِلَـــةِ الكُبُـــودِ ظَـــوَامِي

وبَسَـــطْتَ لـــي وَجْهـــاً كَسَـــفْتَ بِنُـــورِهِ كُـــرَبَ الجَـــلاءِ وَخَلَّـــةَ الإِعْـــدَامِ

وَوَجَـــدْتُ ظِلَّـــكَ بَعْـــدَ يـــأْسٍ تَقَلُّبِـــي وَطَـــنَ الرَّجَـــاءِ ومَنْـــزِلَ الإِكْـــرَامِ

فكَـــأَنَّ وجهَـــكَ غُـــرَّةُ الفِطْـــرِ الَّـــذِي وافَـــى بِفِطْـــرِيَ بَعْـــدَ طُـــولِ صِـــيامِي

فالمنذر قد آواه بعد أن عانى وحشة الغربة ، فأوسع له المقام وبسط عليه الرزق ببحر عطائه وجوده ، فرد الحياة إليه وبعثها في روحه من جديد بعد أن ذبل كبده من الظمأ ، فأدخل السرور إلى قلبه حتى استبشر وجهه بعد أن عانى من كثرة الكروب والمصائب وقلة الإخوان ، فوجد الظل والمنزل بعد اليأس والضياع الذي تقلب فيه ، فكان وجه المنذر أول يوم يفطر فيه الصائم بعد طول صيام ومكابدة ، وهذا دليل قاطع على أن ابن دراج لم يجد أحداً يلتفت إليه ، فجسد أمله كله في كل ملك يقرع بابه ، ويصف المنذر بأنه يقرب الأمل وإن كان بعيد المنال والمطلب ويبعد المصائب والخطوب ، وإن كانت عظيمة ، وهو أيضاً مؤنساً ومسلياً للغرباء الذين نأوا عن أوطانهم لأنهم وجدوا قلباً كبيراً يرحب بكل مغترب، فأصبح هو وطنه وداره ، فيقول (٢) :

يامُـــدْنِيَ الأمـــلِ البعيـــدِ وإِنْ نَـــأَى ومُبَعِّـــدَ الخطـــبِ الجليـــلِ وإِن دَنَـــا

ومُسَـــلِّيَ الغربـــاءِ عـــن أَوْطـــانِهِمْ حَتَّـــى تَبَـــوَّأَ كلَّقلـــبٍ موطِنـــا

ويقول فيه أيضاً (٣) :

فـــإِنْ تضـــايَقَتِ الـــدُّنيا بمُغتَـــربٍ فَمُنـــذِرٌ بعـــدُ رَحْـــبُ الصـــدرِ واسِـــعُهُ

(١) الديوان ص ٢١٥ .
(٢) الديوان ص ٢٦٢ .
(٣) الديوان ص ١٤٣ .

وإنْ دَجـــا فلَـــقٌ يوْمـــاً بـــذي أَمَـــلٍ فَـــذُو الرِّياســـاتِ طَـــقُ الليـــلِ ناصِـــعُهُ

فإن ضاقت الأرض بما رحبت ، ولم يجد المغترب مكاناً يأويه ويرحب به فإن (منذر) واسع الصدر كثير الترحيب به ، وإن شق عليه يوماً تحقيق حلمه فمنذر قادر على ذلك ، لأنه كبيرهم ورئيسهم فهو مثل (الضوء) في شدة الظلام .

لكن ما الذي دفع ابن دراج أن يترك المنذر ويرحل إلى حاكم آخر بعد كل هذا المدح والثناء ؟؟؟ .

هنا نستطيع القول أن رحيل ابن دراج عنه دليل واضح على أنه لم يضعه في المكانة التي يستحقها شاعر كابن دراج ، وفي ذلك يقول د/إحسان عباس [١]: « في ظل منذر لا يزال « ابن دراج » يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغربة » .

ويرحل ابن دراج إلى المنصور ابن أبي عامر ، ويبث فيه أمله لأنه يحيي الغريب والمقيم بكرمه وعطائه ، فيقول [٢]:

وفي كـــلِّ نـــادٍ مُنـــادٍ إِلَيْـــكَ هَلُـــمَّ إِلَـــى حَيْـــثُ يُغْنـــى العـــديمُ
هَلُـــمَّ إِلَـــى حَيْـــثُ تُنْســـى الرَّزايـــا هَلُـــمَّ إِلَـــى حَيْـــثُ تُؤْســـى الكُلُـــومُ
هَلُـــمَّ إِلَـــى حيـــثُ يُـــؤْوى الغريـــبُ هَلُـــمَّ إِلَـــى حَيْـــثُ يُحْمـــى الحـــريمُ

فالمجد أخبر الشاعر عن كرم وعطاء ممدوحه ، فهو البحر الذي سيقيم عنده ، ولن يبرحه أبداً لأنه سيزول عنه الهموم ، ويداوي الجروح والآلام ، ويحميه فهو يحمي المقيم قبل الغريب .

فالشاعر هرب إلى المنصور فآواه ، وخاف من الهلاك فأمن له الحياة الهادئة ، وهرب الشاعر من سيوف الفتنة والمعارك ، فخرج من وطنه فأحاطه المنصور بكرمه وهون عليه الاغتراب بجوده ، لهذا نراه يصف المنصور ابن

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة . د / إحسان عباس ص ٢٠٢ .
(٢) الديوان ص ٢٧٣ .

أبي عامر بأنه مأوى لكل غريب، وكافلاً لكل يتيم، فيقول[١] :

وحَــوَى عــن المنصُــورِ غُــرَّ شمائِــلٍ قــادَتْ لَــهُ الــدُّنْيا بِغَيْــرِ زِمــامِ
يــا ربَّنــا فــاحْفَظْ عَلَيْنــا مِنهُمــا ذُخْــرَ الرجــاءِ وعُــدَّةَ الإِســلامِ
يامُوسِــعَ الــرَّاجِينَ إِفضــالاً ويــا مَــأْوَى الغريــبِ وكافِــلَ الأَيتــامِ
أَعْجِــزْ بجهــدي أَنْ يَفِــي بالعهــدِ مــن مِــنَنٍ عَلَــيَّ لراحتَيْــكَ جِســامِ
فَلأَفْخَــرَنَّ عَلَــى الزمــانِ وأَهلِــهِ بِصِــلاتِ جــودٍ مــن نــداكَ كِــرامِ

ويقول شاعرنا أن المكوث تحت ظل المنصور يعوضه البعد عن الأهل والوطن ، يقول [٢]:

وأَجــارَ خلــقَ اللهِ فــاعْتَرَفُوا عِوَضــاً مــن الأَوْطَــانِ والأَهْــلِ

والذي دفع الشاعر للإحساس بهذه المشاعر قيام المنصور برد جور الأيام عنه ، تلك الأيام التي أشبعته ألماً وعذاباً فقد قضى أيامه الخوالي بالسير نهارا ، والإدراج ليلاً يقول [٣] :

لا ومَــنْ آوى اغتِرابِــي وشــفى حَــرَّ مُصــابي
وكفــانِي صَــرْفَ دهــرٍ ســامَني سُــوءَ العــذابِ

ويقطع ابن دراج الفيافي أملاً في التقرب للمنصور وطمعاً في كرمه ، فيقول [٤] :

فقطعــتُ يَــا منصــورُ نحــوَكَ نَازِعــاً خُــدَعَ المنــى وعلائــقَ الأَســبابِ
وقــد احتَلَلْــتُ لــديكَ أَمْنَــعَ مَعْقِــلٍ وَحَطَطْــتُ رحلــي فِــي أَعَــزِّ جَنَــابِ
في ذِمَّــةِ المَلِــكِ الَّــذِي آمالُنَــا مــن راحَتَيْــهِ تَحْــتَ صَــوْبِ ســحابِ

فالمنصور حقق للقسطلي جميع آماله وطموحاته وأجزل له في العطاء ، وجعل الشاعر في أمنع المعاقل وأعز مكانة .

(١) الديوان ص ٤٢٦ .
(٢) الديوان ص ٣٥٦ .
(٣) الديوان ص ٣٥٦ .
(٤) الديوان ص ١٦ .

وكما وضع المنصور الشاعر في مكانه الصحيح كذلك جعله الشاعر أيضا حاجبا للشمس كونه حجب عنه الأسى والأحزان ، يقول[١]:

أَهـــلاً بِمَـــنْ قَهَـــرَ الملـــوكَ وَمَرْحَبـــا وأَعَـــزَّ مَـــنْ حُلَّـــتْ لِرُؤْيَتِـــهِ الحُبـــى
وبحاجِـــبِ الشَّـــمْسِ الَّـــذِي حَجَـــبَ الأَســـى عنَّـــا وحـــاشَ لِجُـــودِهِ أَنْ تُحْجَبَـــا

وتتراءى الآمال وتتكشف لابن دراج عند المنصور بن أبي عامر بعد أن استبد به التغرب ، فيأتي الوقت معلنا بنهاية الرحيل والغربة ، فيقول [٢] :

ولقـــد تـــراءَتْ فِـــي ذَرَاكَ مطـــالِعِي حـــينَ اسْـــتَبَدَّ تَغَرُّبِـــي بِمغـــارِبِي
فَخَتَمْـــتَ طُـــولَ تَقَلُّـــبِي بتَقَبُّلِـــي وجزَيْـــتَ غُـــرَّ غرائِبِـــي برَغائِـــبِ
وأَجَـــرْتَنِي مِـــن كُـــلِّ خَطْـــبٍ طـــارِقٍ حَتَّـــى مُناجَـــاةِ الرَّجَـــاءِ الخائِـــبِ
ووجَـــدْتُ عنـــد يَـــدَيْكَ سَـــدَّ مفـــاقِرِي وسُـــلُوَّ أَحزانِـــي وبُـــرْءَ مصـــائِبِي

ويختم القسطلي قصة رحيله واغترابه بنيل القبول والرضا ، لأن المنصور قد جازاه ، وحقق له رغائبه ، وحماه من كل الخطوب ، ووجد عنده جمعاً لشمله الذي بدده الرحيل فأزال عنه أحزانه وداوى جروحه ومصائبه .

فابن دراج لم يترك أميراً ولا كاتباً ولا وزيراً ولا قاضياً إلا وجه إليه رغبته في الحماية والاستقرار ؛ ولذلك نراه يمدح أحد وزراء قرطبة الذي هبت رياح عطاياه وكرمه على ذلك الغريب ، فيقول [٣] :

عَرَفْـــتُ عوازِفَـــكَ السَّـــابِقاتِ بَـــوَادِي السَّـــنا واضِـــحاتِ السِّـــماتِ
وَمَـــا كِـــدْتُ أَبْسُـــطُ لَحْـــظَ الغريـــبِ وَمَـــا آنَ حَلِّـــي عِقَـــالَ الأَنَـــاةِ
وبَيْنَـــا أُرَاقِـــبُ نَـــشْءَ السَّـــحا بِ هَبَّـــتْ رِياحُـــكَ لِـــي بالهِبـــاتِ

ويقول أيضاً في بعض رؤساء الكتاب [٤] :

دَعَـــوْتُ فلبَّـــانِي وآوى تَغَرُّبِـــي إِلَـــى كَـــرَمٍ لِلعِـــزِّ ذِي مُرْتَقَـــىً صَـــعبِ

(١) الديوان ص ٢١٦ .
(٢) السابق ص ١٧٢ .
(٣) الديوان ص ٣٤٦ .
(٤) الديوان ص ١٠٠ .

وجَلَّى هُمُومِي مِنْ سَناهُ ببارِقٍ أَضَاءَ بِهِ مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبِ

ويقول في بعض القضاة :

وكم أَحيَيْتَ من نَاءٍ غريبٍ فقيدِ الأَهْلِ مُنْبَتِّ الإِخَاءِ
وكم نَفَّسْتَ كُرْبَةَ مستكينٍ تَأَخَّرَ عنهُ نَصْرُ الأَولِيَاءِ
وكم جَلَّيْتَ من خطْبٍ جليلٍ وكم دَاوَيْتَ من داءٍ عَيَاءِ

وهكذا عاش شاعرنا معظم حياته مغترباً بعيداً عن وطنه وأهله، ولذلك توافر في شعره الكثير من ألوان الغربة .

المحور الثاني : الغربة النفسية

الاغتراب النفسي هو عبارة عن انفعالات الشاعر ، هذه الانفعالات التي تثير وجده فتجعله يغوص في عالم الذكريات علّه يخفف من وجده وقلقه وشوقه فيتذكر ديار الأحبة فيقف عليها باكيا .

وشعراء الغربة النفسية عانوا القلق فانعزلوا عن الناس ، فكانت عزلتهم تلك هروباً من واقع أليم لا يستطيعون التكيف معه ، فيلجأون إلى الماضي وذكرياته ، والوقوف على الأطلال ، والحديث عن أشواقهم وحنينهم وقلقهم الذي ينتابهم في رحيلهم الدائم ، فوصفوا أسفارهم وما يواجهون من صعاب ومتاعب ، وفي هذه الأثناء قد يسترعي انتباه الشاعر أي مظهر من مظاهر الطبيعة ، فيصفه وصفاً نفسياً مجسداً فيه ألمه وإحساسه بالغربة ، فيبحر في عالم من الذكريات والأحلام فيتذكر وطنه ، ومثل هذا الاغتراب نجده عند عبد الرحمن الداخل في الحديث عن نخلة رآها بالرصافة فيعقد بينه وبينها مشاركة نفسية في الاغتراب والبعد ، فيقول (١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٧١٦ ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٢ ص ٦٠ .

وإذا ما بحثنا عن دوافع الغربة في شعر ابن دراج نجد أنه قد عاش فترة مليئة بالأحداث السياسية والاجتماعية المضطربة وهي فترة ملوك الطوائف ، والتي دفعت القسطلي ورمته في مهب الاغتراب النفسي ، وغيره من ألوان الغربة ، فقد انتشر الظلم والفساد في تلك الفترة، فظهرت العصبيات القبلية ، وتعصبت كل طائفة لأميرها ، وهذا ما أشار إليه لسان الدين بن الخطيب في قوله (١) : « ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار » .

تلك الفتن التي شاعت في البلاد في تلك الفترة دفعت ابن دراج نحو الاغتراب النفسي ، إذ أن كل شخص كان يسعى لتحقيق طموحاته وأطماعه في ظل أجواء مليئة بالقلق والخوف ، فترك كل ذلك أثراً نفسياً على الحياة الاجتماعية عامة ، وعلى حياة ابن دراج خاصة ، فرحل شاعرنا ليبحث عن حياة المجد والاستقرار ، وكثرة الرحيل من بلد إلى بلد جعله أيضا يعيش حياة قلقة ، وهذا القلق جعله يكثر الحديث عن وصف الأسفار براً وبحراً ، ولم يكتف بالوصف الخارجي من ذكره للصعاب ، بل تعمق في الوصف النفسي لقلقه وهمومه ، وما يتركه هنا الرحيل من أثر سيء لدى المغترب ، ولذلك نجد في حديث رسول الله ﷺ (٢) :« السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، ونومه ، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله » .

فنرى ابن دراج يتحدث عن مشاهد الطريق وأهواله التي يعانيها المسافر بالنهار وبالليل ، فيذكر اشتداد الحر الذي يتلظى والسراب الرقراق الذي يمور ، والهجير الذي يتسلط لهيبه على الوجه في النهار ، كما يذكر

---

(١) أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الأندلس . تأليف / لسان الدين بن الخطيب ت – إ . ليفي بروفنسال– دار المكشوف ، ط : ٢ بيروت – لبنان ١٩٥٦ ص ١٤٤ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه – عن أبي هريرة ﷺ - كتاب الجهاد – باب الإمارة – حديث رقم (١٩٢٧) جـ ٦ ص ٥٥ – دار الجيل – بيروت ١٣٣٤ هـ . وصحيح البخاري – باب السفر قطعة من العذاب – كتاب الحج ، رقم (١٧١٠) جـ ٢ ص ٦٣٩ ، تحقيق / مصطفى البغا – دار ابن كثير، ط " ٣ / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

الرياح النكباء التي تستنشق وهو لا يغفل الوصف النفسي ، فيذكر مخاوف المسافر وإحساسه بالموت إحساساً يصور في عينه ألوانا مختلفة وأشكالاً متعددة ، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر في تلك الظروف بحيث يخدع حواسه فيسمع له صفيراً حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد ، فيقول (١) :

ولـــو شـــاهَدَتْني والصَّـــواخِدُ تَلْتَظِـــي ... عَلَـــيَّ ورقـــراقُ الســـراب يَمُـــورُ
أُسَـــلِّطُ حَـــرَّ الهـــاجِراتِ إذَا سَـــطَا ... عَلَـــى حُـــرِّ وَجْهِـــي والأَصـــيلُ هَجِـــيرُ
وأَسْتَنْشِـــقُ النَّكْبـــاءَ وَهْـــيَ بَـــوارِحٌ ... وأَسْـــتَوْطِنُ الرَّمْضـــاءَ وَهْـــيَ تَفُـــورُ
ولِلْمَـــوْتِ فِـــي عـــيشِ الجبـــانِ تلـــوُّنٌ ... وللـــذُّعْرِ فِـــي ســـمْعِ الجـــريءِ صَـــفيرُ
لَبـــانَ لَهَـــا أَنِّـــي مِـــنَ الضَّـــيْمِ جـــازِعٌ ... وأَنِّـــي عَلَـــى مَـــضِّ الخُطُـــوبِ صَـــبُورُ
ولـــو بَصُـــرَتْ بِـــي والسُّـــرى جُـــلُّ عَـــزْمَتي ... وجَرْســـي لِجِنَّـــانِ الفَـــلاةِ ســـمِيرُ
وأَعْتَسِـــفُ المَوْمَـــاةَ فِـــي غَسْـــقِ الـــدُّجى ... وللأُسْـــدِ فِـــي غِيـــلِ الغِيـــاضِ زَئِـــيرُ

هذه اللوحة التي رسمها الشاعر ، وصور فيها كل معاني القلق ، وأبرز فيها الأهوال والصعاب التي واجهها في رحيله تكشف شدة إحساس الشاعر وشدة انفعاله النفسي .

ولم يقتصر ابن دراج على وصف رحلاته البرية فحسب ، بل تحدث أيضاً عن رحلاته البحرية ، فالفلك تهوي في زمن غروب الشمس ، وهي مثل الغراب الخائف من الليل، ثم يصف سرعة تلك الفلك، فسرعتها كسرعة الرياح التي تهب على لجج الماء وتقذف شيئاً عظيماً يشبه جبلي ثبير وثهلان ، فظهر السفن موائل فيبصر فيها الركبان وقد غلب عليهم الخوف والهلع ، فوقف كل شخص في مكانه كالصنم الثابت الذي لا حراك فيه، فيقول (٢) :

إليـــكَ شَـــحَنًّا الفُلـــكَ تَهْـــوي كَأَنَّهـــا ... وَقَـــدْ ذُعِـــرَتْ عَـــن مَغْـــرِبِ الشَّـــمْسِ غِرْبـــانُ
عَلَـــى لُجَـــجٍ خُضْـــرٍ إِذَا هَبَّـــتِ الصَّـــبا ... ترامـــى بنـــا فِيهَـــا ثَـــبِيرٌ وثَهْلانُ
مَوائِـــلَ تَرْعَـــى فِـــي ذُراهـــا مَـــوَائِلاً ... كمـــا عُبِـــدَتْ فِـــي الجَاهِلِيَّـــةِ أَوْثَـــانُ

(١) الديوان ص ٢٥١ .
(٢) الديوان ص ٧٤ .

فالقلق والاكتئاب والخوف – هذا الثالوث – الذي يعاني منه الشاعر استحالت مجموعة من الأفكار والمشاعر تدفعه إلى الانهزامية ، إذ يصبح الشاعر محاصراً بتلك المشاعر ، ولكن ابن دراج لا يريد أن يشعر بالانهزامية ، ولذلك يرفض أن يفكر في حاضره المرير ، فلجأ إلى تغيير طريقة تفكيره باللجوء إلى الماضي وذكرياته ، فالوقوف على الأطلال ووصف الأسفار والقلق والعزلة وغيرها من مؤثرات الاغتراب النفسي . وفي هذا الإطار يقول د / أحمد هيكل (١) : « وابن دراج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله ، وغني عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر فظروف الرجل الخاصة وظروف الأندلس العامة كانت من دواعي ذلك ، وخاصة إذا كانت تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن دراج الذي لم ينس أنه قد أذلّ من بعد عز ، واحتاج من بعد غنى ، واضطر وهو الشاعر الكبير وسليل السادة من حكام قسطلة إلى أن يقصد الناس ليبيع شعره بقوته وقوت أولاده » .

فبرز ابن دراج في الوصف النفسي الذي تجاوز به الجانب الحسي الخارجي وتغلغله إلى الجانب النفسي الداخلي ، ومن نماذج ذلك حديثه عن القلق والضياع ، فيقول ابن دراج (٢) :

لَـــكَ اللهُ بِالنَّصْـــرِ العزيـــزِ كَفيـــلُ أَجَـــدَّ مُقـــامٌ أَم أَجـــدَّ رَحيـــلُ

ففي هذا المطلع نجد القلق يسيطر على نفسية الشاعر وخاصة في الشطر الثاني حيث يقول : « أجد مقام أم أجد رحيل » هذا السؤال الذي يطرحه الشاعر يجسد ضخامة معاناته فهو تائه حيران ، جاهل مصيره تماما ، فهو قلق إزاء هذا الموقف .

كما يصور شاعرنا الاغتراب النفسي في الحيوان والطير ، ويبرز سيطرة القلق عليها ، فيقول (٣) :

ســحائبُ تزجيهــا الريــاح فــإنْ وَفَــتْ أَنافَـــتْ بِأَجْيَـــادِ النعـــامِ فُيُـــولُ

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٣١٨ .
(٢) الديوان ص ٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٥ .

ظبـــاءُ سِـــمَامٍ مَـــا لَهُـــنَّ مَفَـــاحِصٌ وزُرْقُ حَمَـــامٍ مَـــا لَهُـــنَّ هَـــدِيلُ
سَـــوَاكِنُ فِـــي أَوْطَـــانِهِنَّ كَـــأَنْ سَـــمَا بِهَـــا المـــوجُ حَيْـــثُ الرَّاسِـــيَاتُ تَـــزُولُ

فيصف الشاعر مجموعة من السحب المحملة بالرياح تسوق مجموعة من النعام بأن لها رقاباً طويلة طال بها بقاؤها وموطنها ، ولكن لضعفها وقلة حيلتها استطاعت تلك الرياح سوقها وتشتيت شملها ، وهناك ظباء اتصفت بالسرعة وليس لها موضع معين تستقر فيه ، وهناك حمام عطش حتى بلغت حدة العطش منه عدم قدرته على الهديل والتغريد ، ولكن هذه الجماعات التي كانت تسكن في أوطانها قد أدى بها الحال إلى هجر موطنها التي تستريح فيه ، وكأن الرياح هي التي تقودها إلى هذا الرحيل والاغتراب ، تماماً مثل الجبال الراسخة التي أزيلت من مكانها .

ولم يقتصر الشاعر على تأثره بالحمام والظباء فقط بل شمل تأثره بالشمس أيضاً ، فجعلها تشاركه مشاركة وجدانية فهي تحزن لحزنه ، فتحمر عينها عند الأصيل بكاء ! وكيف لا ؟ وهي ستغرب وقت الأصيل وتشجو مثله ، فهو غريب ذليل قلق قد اكتوى بنار الاغتراب،فيقول (١) :

لَعَلَّـــكِ يَـــا شمـــسُ عنـــد الأصـــيلِ شَـــجِيتِ لِشَـــجْوِ الغرِيـــبِ الـــذَّلِيلِ

فخص الشاعر الشمس بالذكر عن غيرها من الكواكب الأخرى لأنها تمدهم بالطاقة تزول وتغرب ، فكأن وقت الأصيل سبباً في غروبها ، كما كانت الفتنة سبباً في تشرده وتغربه بالرغم من عظمة مكانته ومكانة أجداده، ولم يكتف الشاعر بوصف نفسه بالغريب بل أتبعه بصفة « الذليل » تأكيداً لشدة المعاناة النفسية .

ونرى شاعرنا يجسد شدة اغترابه النفسي في أخلاقه التي امتزجت بأخلاق وعادات غريبة ، فغلب عليه الهم والحزن ، فهذه الغرائب كما وصفها ابن دراج تردد في أحشائه اشتداد مصائبه التي تشتد ويقوى لهيبها حتى تصبح أقوى من لهيب النيران ، ولهذا يصف الشاعر قوة هذه الأهوال في إحدى

(١) الديوان ص ٧٥ .

رحلاته البحرية ومدى التعب والقلق الذي شعر به، فيقول (١) :

وفِي طَيِّ أَسْمَالِ الغَرِيبِ غَرَائِبٌ سَكَنَّ شَغافَ القلبِ شيبٌ وَوِلْدانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأَحشاءِ حَزَّ مصائِبٍ تزيدُ ظَلاماً لَيْلَها وَهْيَ نِيرانُ
إذا غِيضَ ماءُ البَحرِ منها مَدَدْنَهُ بِدَمْعٍ عيونٍ يَمْتَرِيهنَّ أَشْجَانُ
وإنْ سَكَنَتْ عنَّا الرياحُ جرى بنا زَفِيرٌ إلَى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حنَّانُ
يُقَلِّنَ ومَوْجِ البحْرِ والهَمِّ والدُّجى تموجُ بنا فِيهَا عُيونٌ وآذانُ

فغيض ماء البحر وتحركت الأمواج بقوة وانهمرت الدموع ، كلها دلالات نفسية توضح الاضطراب النفسي الذي عاش فيه الشاعر ، يقول أحد الباحثين (٢) : « ولعله يقصد بذلك رحلة الحياة الشاقة التي خاض غمارها وبخاصة أثناء الفتنة ... في ظل مجتمع متقلب يفتك فيه القوي الضعيف ».

والشاعر حينما يتذكر الرحيل فكأنه يتذكر الموت ، ولذلك فهو كثير القلق ، كثير التشرد ، لأن رحيله دائم كرحيل الأهلة والأقمار ، فالشاعر لا يشعر بالأمان والاستقرار ، وهذا الشعور جعله يعيش حياة قلقة ؛ ولذلك جعل الاغتراب بمثابة الموت ، فيقول (٣) :

ودنا بِهِ أَجَلُ الرَّحِيلِ كَأَنَّهُ أَجَلُ المماتِ دَنَا بِهِ المقدارُ
عامٌ كعُمْرِ الوَصْلِ ليلَةَ زائِرٍ وأسىً تَقاصَرُ دُونَهُ الأَعمارُ
طالَتْ لياليهِ الزَّمانَ بِهَمِّهِ وكأَنَّهُنَّ من السُّرورِ قِصَارُ
بِمُشَرَّدٍ قَلِقِ الثَّواءِ بِمَنْزِلٍ لا يَنْثَنِي فِيهِ لَهُ الزُّوَّارُ
مثْوايَ فيه تَقَلْقُلٌ وتَأَهُّبٌ وَقِرَايَ فِيهِ ذِلَّةٌ وصَغَارُ
للهِ من عامٍ جَرَى عَنِّي بِهِ جَرْيُ الأَهِلَّةِ فِيهِ والأَقْمارُ

يقول أحد الباحثين (٤) : « ومثلما رأى الشاعر بقاء الله وأزليته ، فقد رأوا أيضا بقاء البلاد بجبالها ووديانها وأنهارها ، بأرضها وبسمائها فأدخلوا

(١) الديوان ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) قصيدة المديح في الأندلس قضاياه الموضوعية والفتنة عصر الطوائف . د / أشرف نجا – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٤ ، ص
(٣) المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٤) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى ، تأليف / عزيز السيد جاسم – دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ص ٣٥ .

الحس الوطني في شعرهم، من خلال حكمة الموت ودلالته في الفناء والبقاء » .

كقول المتنبي (١) :

لَــولا مُفارقــة الأَحبــاب مــا وجــدت لَهــا المَنايــا إلى أَرواحنــا سُــبُلا

إذ لولا الفراق لما كان للمنية سبيل إلى الروح ، فالفراق والبعد عن الأحباب سبب لدنو الأجل، ولهذا كان الفراق أكبر شيء يؤرق هاجس ابن دراج، فيفجر القلق المكتظ في نفسه ، ولذلك نراه يقف على أشواك الاغتراب النفسي ، فيقول (٢) :

وفي كَبِــدِي حَــرٌّ مِــنَ الشَّــوْقِ لاعِــجٌ وَفِــي عَضُــدِي غُصْــنٌ مِــن البــانِ نــاعِمُ

يُقِــرُّ هــواهُ أَنَّــهُ لِــيَ قاتِــلٌ وقَلْبِــي لَــهُ مِــنْ جَفْــوَةِ الشَّــوْقِ راحِــمُ

فها هو ذا يحترق كبده ، ويتحمل لواعج الشوق والحنين وهو موقن أن ما به قاتل لا محالة .

ونرى أبياتا أخرى في ديوان ابن دراج تنبض بالقلق والفزع من الرحيل فيقول بأن الشوق يميز بين غريب وغيره وأن المحب لا يصغي إلى من يلومه ويعاتبه ، ويتعجب من تلك الخطوب والمحن التي كشفت ستره ، فهو مغترب عن وطنه ليس له وطن يستقر فيه ، وليس له بين القوم دار يستقر فيها ، فهو مثل المولود الذي فطم من الرضاع قبل أوانه ، لأنه كثير الترحال فالعام عنده كيوم ، واليوم عنده كعام ، فاليوم الذي شبه العام هو يوم القلق والهم الذي لا ينتقص ، والعام الذي هو كيوم هو يوم اللهو والنعيم والاستقرار الذي هو في نقص دائم ، ويشبه إقامتهم في تلك الديار بطلع النخل ، فرحيله دائم متكرر كهبوب رياح الجنوب ، وكلسع الأفاعي الذي يعاود سمها من تلك اللسعة عاماً بعد عام ، وهذا من شدة المعاناة والاضطراب والأسى الذي عاش فيه الشاعر ،

---

(١) ديوان المتنبي ، أحمد بن الحسين الكوفي أبو الطيب المتنبي ت سنة ٣٥٤ هـ - شرح أبي البقاء العكبري – تعليق مصطفى السقا وآخرون – مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط : ٢ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م ، جـ ١ ص ١٣٤ .

(٢) الديوان ص ١٦٠ .

فيقول (١) :

فما راع المشوقُ إلى غريبٍ ... ولا أصغى المحبُّ إلى مَلامِ
فيا عَجَبَ الخطوبِ يُبِحْنَ سِتري ... وَقَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ بِهِ اعتصامي
وحَتَّامَ النوى تهوي برحلي ... وَقَدْ عَقَدَتْ بذمَّتِهِ ذِمامي
فليس لنا إلى وَطَنٍ مَرَدٌّ ... ولا في دارِ قومٍ من مُقامِ
ولا حَلَّتْ بنا دارٌ فزادَتْ ... عَلَى ذاتِ الحوافِرِ والسَّنامِ
مخاضٌ ما لمولِدِهِ رَضاعٌ ... وتَرْحالٌ أَمَرُّ من الفِطامِ
وعامُ مُقامِنا عامٌ كيومٍ ... ويومُ رَحيلِنا يومٌ كعامِ
كيومِ الهمِّ لَيْسَ بذي انتقاصٍ ... ويومِ اللهوِ لَيْسَ بذي تَمامِ
كَأَنَّا في المَنازِلِ طَلْعُ نخلٍ ... يُوافِي أَهْلَهُ أَمَدُ الصِّرامِ
نُروَّعُ بالنَّوى والذُّعْرُ باقٍ ... وَنُفْجَأُ بالأَسى والجُرْحُ دامِ
وَما سَكَنَتْ جُنوبٌ في مِهادٍ ... ولا مُلِئَتْ عيونٌ من مَنامِ
كما حُدِّثْتَ عن لَسْعِ الأَفاعي ... يُعاوِدُ سُمُّها عاماً بِعامِ
وأفْجَعُ بالنَّوى في دارِ سَفْرٍ ... فكَيْفَ نَوىً عَلَى دارِ المُقامِ

فالشاعر لم يستطع بعد تجاوز حدة القلق والتوتر ، ويتمنى أن يستقر في مكانه وديارِه ولو في المنام ، لكي يتخلص من دياجير الغربة والوحشة .

يقول د / أحمد هيكل (٢) : « ترى من ملامح نفسية ابن دراج شعوره دائماً بالحاجة إلى الأمن ، وإحساسه أبداً بضرورة الاستقرار وفزعه الشديد من التشتت والتشرد والضياع » .

فيضيف الشاعر اغترابه النفسي ، واغتراب أبنائه في إحدى رحلاتهم مجسداً مدى القلق الذي انتابهم ، يقول (٣) :

جُسُوماً أَقَلَّتْها الرِّياحُ فَلَمْ تَدَعْ ... لَهُنَّ مِنَ الأَرواحِ إلا أَقَلَّها
نَجائِبُ وَصَّاها الجَدِيلُ وشَدْقَمٌ ... بِأَلا تَمَلَّ اللَّيلَ حَتَّى يَمَلَّها

(١) الديوان ص ٢٣٠ – ٢٤٠ .
(٢) دراسات أدبية . د / أحمد هيكل ، ط : ١ ، دار المعارف – القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٥٤ .
(٣) الديوان ص ٢٢٣ .

فَتُخْلِـــقُ بالإرْقَـــالِ ثَـــوْبَ شَـــبابِهِ وتَتْرُكُـــهُ بِـــالأُفْقِ أَشْـــيَبَ أَجْلَهَـــا
وكَـــم ضَـــمَّ ذَاكَ اللَّيْـــلُ مِـــنْ أُمِّ شَـــادِنٍ أَضَـــلَّتْهُ فِـــي جَـــوْفِ الفَـــلا وأَضَـــلَّها
وَقَـــدْ بَلَّـــغَ الجَهْـــدُ القُلُـــوبَ حَنَـــاجِراً تُبَشِّـــرُها أَنَّ التَّنَـــاهِي مَـــدىً لَهَـــا

فالرياح تنقلهم من مكان إلى آخر حتى أصبحوا لا يملون الرحيل والإدلاج في الليل ، بل صار الليل هو الذي يملهم ، وهذا دليل على كثرة رحيلهم ، وكثرة معاناتهم التي بلغت الحناجر ، لقد سيطر اليأس والقلق على الشاعر حتى أنه عزم على أن يقطع الآمال والأحلام فيقطعها باليأس ، ومدى تعمق الاغتراب النفسي فيه ، فيقول (١) :

وإِنْ غَـــزَتْ الآمَـــالُ نفســـي صـــرمتُها بصـــارمِ يـــأْسٍ فِـــي يمـــينِ تُقَـــىً حُـــرِّ
ولكِـــنْ أَبَـــى مَـــا فِـــي الفُـــؤَادِ مِـــنَ الأَســـى وأَعْضَـــلَ مَـــا بَـــيْنَ الضُّـــلُوعِ مِـــنَ الجَمْـــرِ

وهكذا كانت حياة ابن دراج القسطلي رحيلاً ، ودموعاً ويأساً وضياعاً ، وكل هذا يصور لنا اغترابه النفسي .

(١) السابق ص ٢٣١ .

المحـــور الثالـث : الغـــربة الاجتمـــاعية

قد توجد في حياة الأسرة فترات حرجة تتعرض لها روابط الأسرة بالتفكك والضعف والعوامل التي تؤدي إلى هذا الضعف « قد تكون عوامل اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو سياسية فتنهار بها وحدة الأسرة وتتصدع نتيجة لتلك الأجواء المتوترة ، ومعروف أن رب الأسرة هو الذي يقوم بتوفير الغذاء والمأوى وغيرها من المطالب المادية المحافظة على استمرار حياة الأسرة واستقرارها ، ولكن إذا كان جو الأسرة ، أو الظروف المحيطة بها مشحونة بالتقلبات والتغيرات المفاجئة كانت كفيلة بأن تهدم هذا الكيان الأسري ، وهدم هذا الكيان يؤدي إلى شقاء أفراد الأسرة ، فيتحمل كل شخص نصيبه من الحزن مهما كان عمر ذلك الفرد صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى » (١) .

وقد استطاع الشعراء أن يعبروا ويصفوا هذا الكيان الاجتماعي ، وما يعتريه من ظروف قاسية ساعدت في تشتيت شمل هذا الكيان وتفرقه ، واستطاعوا أن يعبروا عن أحزانهم وأحزان أسرهم حين ينتقلون من موطنهم إلى بلد آخر ، فالظروف السيئة التي مرت بها البلاد الأندلسية جعلت بعض الشعراء يرحلون مع أسرهم بحثاً عن مكان آمن يستقرون فيه بعيداً عن الغربة والتشرد .

ولذلك نرى ابن دراج من خلال شعره يحاول أن يصور همومه وهموم أسرته وإحساسهم بالغربة والتشرد ، كما صور إحساسه عندما يتركهم ويرحل .

فقد اضطر شاعرنا إلى مغادرة موطنه وموطن أجداده (قسطلة) منتقلا إلى قرطبة تاركاً وراءه أبناءه إلى أن هيأ له ولهم حياة مستقرة هناك، ولكن الأمر لم يدم طويلاً فقد وقعت الفتنة واضطر ابن دراج الضرب في الأرض مغترباً بحثا عن مكانا آمنا له ولأولاده ، وكان في أحيان كثيرة يرحل عنهم ، وأحياناً أخرى يصطحبهم معه ، فكان يتحمل مسئوليتهم ويلبي طلباتهم

(١) الأسرة ومشكلاتها . د / محمود حسن – دار النهضة العربية – بيروت – المقدمة بتصرف .

تحت تلك الظروف القاسية ، وعلى الرغم من كثرة عددهم إذ كان يبلغ عددهم بضعة عشر ذكورا وإناثا ، فنرى ابن دراج في خضم النكبات كان يحن إلى أسرته ويصور قسوة الأيام وتغلغل إحساسهم بالغربة فيقول[١]:

فما جَهِدُوا فُلْكاً كَما جَهِدُوا يَدِي ولا أَنْقَضُوا رحلاً كَمَا أَنْقَضُوا ظَهْرِي
كَأَنَّ لَهُمْ وِتْراً عَلَيَّ وَمَا انْتحى لَهُمْ حَادِثٌ إلا وَفِي نَفْسِهِ وِتْرِي
ولَوْلا هُمُ لَمْ أُبْدِ صَفْحَةَ مُعْدِمٍ وَلَمْ أُسْمِعِ الأَعْداءَ دَعْوَةَ مُضْطَرِّ
ولا جُدْتُ لِلدُّنيا بِخَلَّةِ واصِلٍ ولَوْ بَرَزَتْ لي فِي غَلائِلِها الخُضْرِ

ويقول في كثرة مطالبهم [٢] :

تمورُ بِضِعْفِ نُجُومِ الثُّرَيَّا لَوانْفَرَدَتْ بِأَدِيمِ السَّمَاءِ
ثمانٍ كأَسرارِ قَلْبِ الكَئِيبِ ورابِعَةٌ كَقِدَاحِ السِّرَاءِ
مَطالِبُهُمْ لِمَطالِ الضِّمارِ وآجالُهُمْ لاقْتِضاءِ القضاءِ

يقول د / أحمد هيكل عنه [٣] : « هذا شعر ابن دراج من حيث الموضوعات، وقد رأينا أن الموضوع الغالب في الظاهر هو موضوع المدح، ولكن خلال قصائد المدح أغراض كثيرة هامة أبرزها وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصف الأسفار براً وبحراً ، ونهاراً وليلاً ، وتصوير الغربة والقلق والضياع ، وخاصة غربة الأبناء وقلق الأهل ، وضياع الأسرة » .

ولذلك أكثر في ذكر أسرته واصفا مدى تشردهم حتى « بلغت أكثر من عشرين مرة في ديوانه، وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر»[٤].

فالشاعر كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، فنجده في الأبيات التالية يشعر بالغربة فيتذكر وداعه لزوجته التي كانت تبكيه دائما ، وقد تأثر الشاعر بذلك الموقف حتى كاد قلبه أن يتمزق من الحزن والحسرة، فلم تكن

(١) الديوان ص ١٩٤ .
(٢) السابق ص ٣٣٧ .
(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . د / أحمد هيكل ص ٣٩ .
(٤) السابق ص ٣١٦ .

الزوجة وحدها ، بل كانت ابنته ذات الثمان سنوات ، إذ كان فؤادها يخفق بقوة اضطراباً وحزنا لفراق والدها ، وقد تعلقت يداها بكتف أبيها تشكو له حالهم بعد رحيله ، وما سوف يعانونه من غربة وألم ، وما سيصيبهم من جفاء الأقارب وقسوتهم ، فيقول (١) :

ولله عزمي يوم وَدَّعْتُ نحوه ... نُفُوساً شجاني بَيْنُهَا وَشَجاها
وَرَبَّةُ خدرٍ كَالجُمَانِ دُمُوعُها ... عَزِيزٌ عَلَى قلبي شُطُوطُ نَوَاها
وَبِنْتُ ثمانٍ مَا يزال يَرُوعُنِي ... عَلَى النَّأْيِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاها
وَمَوْقِفُهَا وَالبَيْنُ قَدْ جَدَّ جَدُّهُ ... مَنُوطاً بحبلَيْ عَاتِقَيَّ يَدَاها
تَشَكَّى جَفَاءَ الأَقْرَبِينَ إِذَا النَّوى ... تَرَامَتْ برحلي فِي البلادِ فَتَاهَا

وهذه الأبيات يحاول ابن دراج أن يجسد غربة أبنائه ، ولكنه لم يصف إحساسه بالغربة فقط، بل أبرز إحساس أسرته بالضياع والتشرد في ديار الغربة .

ويتذكر ابن دراج ذلك اليوم الذي اضطره للرحيل عن أبنائه، فقد كان ذلك اليوم بمثابة الصدع الذي مزق شمله ، وتتوالى عليه الذكريات فيتذكر موقف وداعه لزوجته ، ذلك الموقف الحزين الذي تتقطع له القلوب وتشجو لشجوه النفوس ، ويقف الشاعر واصفا ذلك الوداع حيث اجتمعت أسرته حوله يودعونه بحرقة وألم ، ثم يفترقون عنه كتشعب أغصان الأشجار التي تهب عليها العواصف ، هذه الصورة وما فيها من تصدع وشجو وتفرق ودموع تمثل لنا غربة أسرته ، فقد كان فراق الشاعر لأسرته كفراق الروح للجسد ، ولكن الشاعر أراد أن يخفف من تلك الأجواء الحزينة ، ويحاول أن يطمئن أبناءه بأنه سيأتي لهم بالخير ، وأن عيشهم سيصبح محموداً ، فهذه القطعة تضج بمعان الغربة وحنين الشاعر لأسرته ، فيقول (٢) :

ويا رُبَّ يومٍ بانَ صَدْعُ سلامِهِ ... بصَدْعِ النَّوى أَفْلاذُ قَلْبيَ إِذْ بانوا
نُوَدِّعُهُمْ شَجْواً بشَجْوٍ كَمِثْلِما ... أَجابت حفيفَ السَّهْمِ عوْجاءُ مِرْنانُ

(١) الديوان ص ١١ .
(٢) الديوان ص ٨٩ ، ٩٠ .

ويَصْـــدَعُ مَـــا ضَـــمَّ الـــوَدَاعُ تفـــرُّقٌ ... كمـــا انشَـــعَبَتْ تَحْـــتَ العواصِـــفِ أَغصـــانُ
إذا شَـــرَّقَ الحـــادي بِهِـــمْ غَرَّبَـــتْ بنـــا ... نـــوىً يوْمُهـــا يومـــانِ والحِـــينُ أَحيـــانُ
فـــلا مُـــؤْنِسٌ إلا شـــهيقٌ وزَفْـــرةٌ ... ولا مُســـعِدٌ إلا دُمـــوعٌ وأَجفـــانُ
ومـــا كَـــانَ ذَاكَ البَـــيْنُ بَـــيْنَ أَحِبَّـــةٍ ... ولكـــنْ قلـــوبٌ فـــارَقَتْهُنَّ أَبـــدَانُ
فيـــا عَجَبـــاً للصَّـــبرِ منَّـــا كَأَنَّنَـــا ... لهـــمْ غَـــيرُ مَـــن كنَّـــا وهـــم غَـــيرُ مـــن كـــانوا
قَضـــى عَيشُـــهُمْ بَعْـــدِي وعيشـــي بَعْـــدَهُمْ ... بـــأَنِّي قَـــدْ خُنـــتُ الوَفـــاءَ وَقَـــدْ خـــانُوا
وُجـــوهٌ تَنَـــاءَتْ فِـــي الـــبِلادِ قُبورُهـــا ... وإِنَّهُـــمُ فِـــي القَلْـــبِ مِنِّـــي لَسُـــكَّانُ
وَمَـــا بَلِيَـــتْ فِـــي التُّـــرْبِ إلاّ تَجـــدَّدَتْ ... عَلَيْهـــا مِـــنَ القَلْـــبِ المُفَجَّـــعِ أَحْـــزانُ
هُـــمُ اسْـــتَخْلَفُوا الأَحبـــابَ أَمْـــوَاجَ لُجَّـــةٍ ... هِـــيَ المَـــوْتُ أَوْ فِـــي المَـــوْتِ عَـــنْهُنَّ سُـــلْوَانُ
بَقايـــا نُفُـــوسٍ مِـــنْ بَقِيَّـــةِ أَنْفُـــسٍ ... يُمِيتـــونَ أَحْزانـــي فـــدينوا بمـــا دَانُـــوا
أَقُـــولُ لَهُـــمْ صَـــبْراً لَكُـــمْ أَوْ عَلَـــيْكُمُ ... عَســـى العـــيشُ مَحمـــودٌ أَوِ المَـــوْتُ عَجـــلانُ

ويخاطب الشاعر زوجته ويطلب منها أن تترك شؤونها وتقضي ساعة تأمل ، فتتخيل تلك الليلة التي سيزف صباحها بشرى سارة ، وهذه البشرى انتهاء حياة الترحال والشعور بالحزن والأسى ، ويطلب منها أن تتحمل لواعج الشوق والحنين ، وتتحمل حرقة الوداع ، وأن تتجرع غضض النوى، وإن رحلت معه فعليها أن تستوطن الفلاة، وتسير في الليل، يقول[1]:

كُفِّـــي شُـــئُونَكِ ســـاعَةً فَتَـــأَمَّلِي ... فِـــي لَيْلِهـــا بُشْـــرَى الصَّـــباحِ المُقْبِـــلِ
وتَنَجّـــزِي وَعْـــدَ المشـــارِقِ وانظُـــرِي ... واســـتَخْبِرِي زُهْـــرَ الكواكِـــبِ واسْـــأَلِي
فلَعَـــلَّ غايـــاتِ الـــدُّجى أَن تَنْتَهِـــي ... وعَســـى غيابـــاتُ الأَســـى أَن تَنْجَلِـــي
لاتَخْـــدَعِي بـــدموعِ عَيْنِـــكِ فِـــي الـــورى ... قَلْبـــاً يعِـــزُّ عَلَيْـــهِ أَن تَتَـــذَلَّلِي
وتَجَمَّلِـــي لِشَـــجا النَّـــوى لا تُمْكِـــني ... أَيـــدي الصَّـــبابَةِ مِـــن عِنـــانِ تَجَمُّلِـــي

إلى أن قال :

وتَجَرَّعِـــي غُصَـــصَ التنـــائِي واجْمَعِـــي ... بَـــيْنَ المَطِـــيِّ ولَيْلِـــهِنَّ الأَلِيَـــلِ

(١) الديوان ص ٤١٦ – ٦١٧ .

واستوطِني وَحْشَ الفلاةِ ووَطِّنِي نفساً لِبَرْحِ تَوَدُّعٍ وتَرَحُّلِ

ويتكرر الحديث عن غربة الأبناء وغربة الأقارب ، ولكن هذه المرة أبرز ذلك من خلال ثقافته القرآنية ، فيصف غدر أقاربه كجهل إخوان يوسف الذي رأى في المنام مجموعة من النجوم فأخبره والده وخشي عليه من جهل إخوانه ، وتغرَّب في الأراض ، وكانت عاقبة تغربه فضلا من الله تعالى إذ أصبح نبياً ، فتقمص الشاعر شخصية يوسف ، وتابع ابن دراج وصف سجنه وما شعر به من تغرب وجلاء ، هذا الشعور الذي شعر به شاعرنا وأبناؤه الذين يجوبون الصحاري والبحار ، وعانوا الكثير من المتاعب والصعاب قد بلغ الذروة ، فالخطوب التي واجهتهم لا ينفع فيها الذكاء ، وأحاطت بهم الخطوب حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وبكت عليهم السماء ، هذا الإحساس أخذ يتراكم ويتراكم في نفس الشاعر وأبنائه ، فيقول (١) :

أَخُو ظَمَأٍ يَمُصُّ حَشَاهُ سَبْعٌ وأَرْبَعَةٌ وكُلُّهُمُ ظِمَاءُ
كَأَنْجُمِ يوسُفٍ عَدَداً ولكِنْ بِرؤْيَا هَذِهِ بَرِحَ الخَفَاءُ
خطوبٌ خاطَبَتْهُمْ مِن دَوَاهٍ يموتُ الحزمُ فِيهَا والدَّهَاءُ
تَراءَتْ بالكواكِبِ وَهْيَ ظُهْرٌ وآذَنَ فِيهِ بالشَّمْسِ العِشَاءُ
فَهَلْ نَظَرِي تَخَفَّى أَوْ بِصَدْرِي وضَاقَ البَحْرُ عَنْهَا والفَضَاءُ
وكُلُّهُمُ كَيُوسُفَ إِذْ فَدَاهُ مِنَ القَتْلِ التَّغَرُّبُ والجَلاءُ
وإِنْ سِجنٌ حَواهُ فكَمْ حَواهم سجونُ الفُلْكِ والقفرُ القَواءُ

فحرمان ابن دراج من الاجتماع الأسري جعله يحن لأسرته ويتذكر وداعه لزوجته وأبنائه ، فلا يقر له قرار، ولا يجد الراحة وهو بعيد عنهم ، وإنما كان الشعور بالغربة وحرقة الفراق أمراً ملازما له ؛ ولذلك يقول أن من عاش ذليلاً فإنه يعيش حياة ذليلة ، فالموت في العز أخف وطأة من العيش في الذل ، فيقول (٢) :

(١) الديوان ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٢) الديوان ص ١٠٠ .

وأَسْبلَ لي من سِتره فَوْقَ سِتَّةٍ أَهِيمُ بهمْ فِي الأَرضِ مِثلَ القطا الزُّغبِ

ويبرز ابن دراج مدى تغلغل الغربة في نفوسهم ، والمتاعب التي مروا بها أثناء رحيلهم ، يقول (١) :

وكم وَجَّهُوا وَجْهاً لبارقَةِ الظُّبى وكم وَطَّنُوا نَحْراً لِنافِذَةِ النَّحْرِ
وكمْ أَقدَمُوا بَيْنَ المَنايا كَمَا هَوَتْ فَرائِسُ أُسْدِ الْغابِ لِلنَّابِ والظُّفْرِ
وكم بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ راعٍ وحافِظٍ وُجُوهَ المنايا السُّودِ والحَدَقِ الحُمْرِ

إلى قوله :

وكم زَفْرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ أَنَارَتْ بِنارِ السِّرِّ فِي عَلَمِ الجَهْرِ

والكثير من الأسئلة التي كررها الشاعر ؛ ليجسد فيها سيطرة الغربة على أبنائه الذين أقدموا بين المنايا التي هوت بهم ، فجعلهم فرائس لأسد الغاب مما أثار فيهم الرعب والهلع .

وتتمثل الغربة الاجتماعية عند ابن دراج في **(غربة الأصدقاء)** ، فنجد نغمة الغربة الاجتماعية ترتفع في نفس ابن دراج إلى نغمة حزينة يلفها الخذلان والغدر ، وهذا الخذلان كان أكثر مأساوية ؛ لأنه ينبثق من غدر الأصدقاء والإخوان ، والسؤال : هل عانى ابن دراج من غدر الأصدقاء حقاً ؟ ، وهل استطاع ابن دراج أن يكتشف أثناء رحيله الدائم من هو صديقه ؟ ، وما هي الصفات التي يتصف بها الصديق الصادق ؟، وهل كان ابن دراج محباً للصداقة ومهتماً بإقامة علاقات صداقة حميمة؟ ، أم أنها كانت علاقات عابرة تنتهي بمجرد رحيله عن تلك البلاد ؟ .

هذه الأسئلة تجيب عليها أبياته الشعرية ، والتي تفوح منها رائحة الغدر والخيانة من الأصدقاء ، هذا الغدر الذي كان سببا فاعلاً لإحساسه بالغربة والتفرد .

ولكن عاطفة ابن دراج تعكس مدى حبه وتمسكه بالأصدقاء ، فها هو ذا يلقي السلام على أصدقائه، ويدعو لهم بالحياة الرغدة والعيش الهنيء، ويدعو

(١) السابق ص ١٩١ .

– أيضاً –للدهر الذي كان له فيه أصدقاء ، وهذا يعني أنه لم يعد له صديق، وإنما كان له ذلك الصديق الوفي في الزمن الغابر ، يقول (١) :

سَـــلامٌ عَلَـــى الإِخْـــوانِ تَســـليمَ آيـــسٍ وسُـــقياً لِـــدَهْرٍ كَـــانَ لِـــي فِيـــهِ إِخْـــوانُ

هذا الحب الكبير للأصدقاء حب ينبض به قلب ابن دراج ولكن هيهات هيهات له أن يهنأ بتبادل هذا الحب بين الأصدقاء ، فها هي ذي نغمة الحزن تعاوده مرة أخرى لتعزف أبياتا يلفها الحزن والجفاء ، فهو غريب ليس له صديق في دار الغربة ، يقول (٢) :

ولا عَرَّفَـــتْ بِـــي خَلَّـــةً دارُ خُلَّـــةٍ عَفَـــا رَسمَهَـــا منهـــا جفـــاءٌ ونِســـيانُ

فخيانات الأصدقاء كثيرة مروعة ، تتمثل في الجفاء والنسيان ، هذا الجفاء الذي حطم قلب الشاعر ، فاستطاع أن يفرق ويميز بين الصديق الحق وغيره ممن يدَّعون الصداقة، فهو بلا شك لا يجهل هيئات أصدقائه ، ويعرفهم حق المعرفة ، ولكن بمساعدة الخطوب والمصائب التي توالت وتدافعت عليه في ديار الغربة ، استطاع أن يعرف معنى الإخاء ومعنى الصداقة ، ومدى عمق هذه الصداقة ، وبالرغم من هذه المعرفة القوية فإنه لم يسلم من غدر الأصدقاء وجفائهم ، فيقول (٣) :

وَقَـــدْ ضَرَّسَـــتْنِي حُـــرُوبُ الخُطُـــوبِ وأَبْطَـــأْتِ يَـــا نُصْـــرَةَ الأَوْلِيـــاءِ
وعُرِّفْـــتُ فِـــي نَكَبَـــاتِ الزَّمَـــانِ بِكُنْـــهِ الصَّـــدِيقِ ومَعْنَـــى الإِخَـــاءِ
فواقَـــدَمِي مِـــنْ ســـلامِ العِثَـــارِ ويـــا أَلَمِـــي مِـــنْ سِـــهامِ الجَفَـــاءِ

هذا الأنين الذي يتصعد ويتصعد ، ويزداد قوة في صوت ابن دراج كلما تذكر غدر أصدقائه، والذي تمثل هذه المرة في المماطلة وعدم مد يد العون له ، فيقول (٤) :

ويـــا خُلَّـــةَ التَّســـويفِ قُـــومي فأغـــدِقي قناعَـــكِ مِـــنْ دُونـــي وشُـــدِّي إِزارَكِ

---

(١) الديوان ص ٨٩ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) السبق ص ٣٣٩ .
(٤) الديوان ص ١٠٦ .

وَحسبك بي يَا خُلَّةَ النَّأْي خاطِري بِنَفسي إِلَى الحَظِّ النَّفيسِ خِطَارَكِ

وابن دراج يشعر بشدة الألم والعذاب بسبب نكران الصديق له، يقول[١]:

فَإِنْ غَرَّبَتْ أرض المغاربِ مَوئلي وأَنْكَرَنِي فِيهَا خَلِيطٌ وخِلّانُ

هذا النكران وهذا الجحود من قبل الأصدقاء جعلا ابن دراج يصرخ بصوت حزين ينبثق من قلب جريح يعاني القسوة والغدر ؛ لذلك نراه في الأبيات التالية يخاطب من يسأله عن ود الأصدقاء ووفائهم ، وكيف الطريق لوجود صديق وفي ، فبقي في لجج الأسى متجرعاً منه ألوانا ، فيقول [٢] :

ومُسائِلٍ عنِّي الرِّفَاقَ وُدُّهُ لَوْ تنبذُ السَّاداتُ رحلي بالعرا

وبقيتُ فِي لُجَجِ الأَسى مُتضَلِّلاً وَعَدَلْتُ عن سُبلِ الهُدى مُتحيِّرا

وها هي زفرات ابن دراج ازدادت في صعودها وقوتها كلما تذكر عدم وفاء الأصدقاء ، يقول [٣] :

عن كُلِّ معدومِ القَرِينِ مُكَرَّمٍ ومعظَّمٍ فِي المَالكينَ مُبجَّلِ

هذه هي خطرات نفس ابن دراج وهواجسها ، ودمعاته التي تزداد قوة ، فكانت تلك المقطوعات مفعمة بالعاطفة والإحساس المليء بالخيانة والغدر ؛ لذلك لم يتخذ صديقا له إلا الزمان ، يقول [٤] :

غرارةُ عيشٍ أَراهَا الغُرورُ بِأَنَّ الزمانَ صديقٌ حميمُ

ومن صنوف الغربة الاجتماعية عند ابن دراج « الغربة عن الناس» .

فأول مظاهر غربة شعر بها ابن دراج من الناس « **انعدام الوفاء والأمان** » لحاجته الشديدة إليهما ، فهما من الضروريات التي تساعده على التكيف والاستقرار واستمرار الحياة في تلك البلاد ، لكن انعدامهما أو الشعور بذلك كان له أثر سلبي على شخصية ابن دراج ، فالإحساس بالغربة بين أناس

---

(١)السابق ص ٨٩ .
(٢)السابق ص ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣)السابق ص ٤١٩ .
(٤)الديوان ص ٢٧١ .

تتفق معهم في عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم إحساس يبعث على المرارة والحزن .

وقد تمثل غدر هؤلاء الناس لابن دراج في اندفاعهم بطريقة همجية عمياء في التحريض والتشكيك في قدراته الشعرية ، هذا السلوك العدواني الذي جعله يبحث عن الحامي الذي يدافع عنه ويحميه من غدر هؤلاء الحساد والحاقدين، ولكي يجد من يدافع عنه كان لابد أن يلجأ إلى المديح على نحو قوله (١) :

وَقَـــدْ وَجَـــدْتُ عيـــاذَ اللهِ أَمَّـــنَني ... فِـــي ذِمَّـــةِ المَلِـــكِ المنصـــورِ مَـــا حَزَبَـــا
مِـــن شَـــرِّ تَشْـــغِيبِ حُسَّـــادِي إِذَا حَسَـــدُوا ... وشَـــرِّ غاسِـــقِ أَيَّـــامِي إِذَا وَقَبَـــا
وفَـــلَّ عَنِّـــيَ أَحـــزابَ العِـــدى مَلِـــكٌ ... مُعَـــوَّدٌ أن يَفُـــلَّ الجحفـــلَ اللجِبـــا

فهؤلاء الناس قد طبع على قلوبهم الغدر والحقد ، وليس هناك ما يشغلهم سوى الغدر بابن دراج ، فهذا الشعور كان ملازماً للشاعر الذي زاد من حدة هذا الإحساس هو اغترابه عن وطنه ، فهو يرى أنه غريب عن الناس مما أتاح للحساد والحاقدين أن ينالوا منه ويتربصوا له كل مرصد ، يقول (٢) :

بعيـــدٌ مِـــنَ الأَوْطَـــانِ مُسْتَشْـــعِرُ العِـــدى ... غَريـــبٌ عَلَـــى الأَهْـــوَاءِ مُـــتَّهَمُ الصَّـــحبِ
أَقَـــلُّ مِـــن الرِّئْبَـــالِ فِـــي الأَرْضِ آلِفـــاً ... وإِنْ كَـــانَ لَحْمِـــي للحســـودِ ولِلخِـــبِّ
وأَعْظَـــمُ تأْنيســـاً لِـــدَهْرِي مِـــنَ المُنَـــى ... وأَوْحَـــشُ مِنـــهُ مِـــن فتـــى الجُـــبِّ فِـــي الجُـــبِّ

فمجرد إحساس الشاعر بأنه غريب عن الناس جعله يشعر أن كل إنسان يحاول تحقيق طموحاته وأحلامه لابد أن ينال من الناس الحقد والحسد ، وإضمار الغدر والشر .

كما تمثل غدر الناس عند ابن دراج في **ابتعاد الناس عنه**؛ لضيق حاله، ولذلك نراه يخاطب كل من ابتعد عنه ، ولم يقدم يد العون والمساعدة بأنه سيحقق آماله وطموحاته ، يقول (٣) :

عســـى الَّـــذِينَ نـــأَوْا عنِّـــي أُخْبِّـــرُهم ... بـــأَنَّ نَفْسِـــيَ مبلـــوغٌ أَمَانِيهَـــا

(١) الديوان ص ٣٦٧ .
(٢) الديوان ص ٩٨ .
(٣) الديوان ص ٩ .

ولم يكتف الشاعر بإسناد الغدر للإنسان فقط ، بل يرى أن الدهر يغدر به أيضاً ، وكذلك الوفاء ، فيقول (١) :

واسْـأَلْ بِضَـيْفِكَ كَيْـفَ بَعْـدَكَ حالُـهُ وقَـدِ اقْتَضَـتْهُ بعـدَ دارٍ دارُ
غَـدَرَتْ بِـهِ أَيَّـامُ عـامٍ قَـدْ وَفَـى أَنَّ الوفـاءَ بِعَهْـدِهِ غَـدَّارُ

فانتشار الغدر من الناس والدهر ، وحتى من الوفاء شيء أقلق الشاعر كثيراً ؛ ولذلك نراه يلح إلحاحاً شديداً إلى ضرورة انتشار الأمن والاستقرار ، هذه الرغبة الملحة ظهرت بطريقة جلية في شعره ، فحينما يمدح ملوك الأندلس في تلك الحقبة الزمنية المضطربة يمدحهم على أنهم استطاعوا أن ينشروا الأمن والاستقرار ، فيقول (٢):

لَبِسَـتْ ثِيـابَ الأَمـنِ حـينَ تَمَنَّعَـتْ آفاقُهـا وتباعَـدَتْ أَقطارُهـا
وتسـربَلَتْ حُلَـلَ الثُّلُـوجِ جِبالُهـا واسْـتَفْرَغَتْ مَـدَّ الحَيـا أَنهارُهـا

فهو يرى أن الأمن عبارة عن ثياب يلبس . كما نراه يستشعر لفظة الرياض للأمن ، يقول (٣) :

فَهَـذِي رِيـاضُ الأَمـنِ تُزْهِـرُ بـالمُنى وهـذِي سمـاءُ الفضـلِ تَهْمِـي بإفْضـالِ

كما يتصور الأمن في صورة ظلال يستظل بها لامتداد ظل الأمن في كل أنحاء المعمورة ، يقول (٤):

ظِـلاً لمـن مَـدَّ ظـلَّ أَمْـنٍ فِـي كـل أَرضٍ وكـل ثغـرِ

وهكذا نجد ارتباط التجربة الشعرية عند ابن دراج بالناحية النفسية ، والسياسية ، والمكانية ، والاجتماعية المتمثلة في غربة الناس والأصدقاء ، وتصوير غربة الأهل ، فقد خلع ابن دراج كل تلك النواحي وجسدها في شعره الذي صور لنا ذلك الصراع بكل نواحيه ، فعبر عن تلك الهموم بأجل تعبير وأصدقه ، ولاسيما عند حديثه عن أبنائه ، هذا الحديث الذي تفرد به ابن دراج عن غيره من شعراء عصره ، الذي أصبح سمة بارزة في

(١) الديوان ص ١٥٦ .
(٢) الديوان ص ٤٠٨ .
(٣) الديوان ص ٢٧٩ .
(٤) الديوان ص ٢٥٤ .

شعره .

المحـــور الرابـــع : الغـــربة المكـانيـــة

عندما نتكلم عن الغربة المكانية فلابد أن ننوه على المعنى المقصود من هذا المصطلح ، وهو الإحساس الذي يحاول الشاعر تصويره حينما ينتقل من مكان إلى مكان آخر لتحقيق رغباته وأحلامه واصفاً إحساسه بالغربة ؛ ذاكراً تلك الأقاليم والمدن التي توجه إليها ، وحينما يصل إلى تلك البلاد يصاب بخيبة أمل كبيرة ، إذ يفاجأ الشاعر بأنه لا يستطيع تحقيق طموحاته ولو كان جزءاً بسيطاً منها .

وشاعرنا كان من أكثر الشعراء حديثاً عن هذا النوع من الغربة ، لأنه عاش في عصر مليء بالفتن ، وهذا يعني بأنه كان مضطراً للرحيل ، فقد غادر ابن دراج قسطلة موطنه الأصلي متجهاً إلى قرطبة عاصمة الدولة الأندلسية مادحاً رؤساءها ، واستمر في مدحهم حتى آخر أمير لها يدعى القاسم ، ويبدوا أنه لم يجد لدى القاسم ما كان يأمله وحينئذ قرر مغادرة قرطبة ، فغادر القسطلي بلاد الأندلس تاركاً وراءه كل ما تعج به من فتن واضطرابات ، فيتجه إلى سبتة وقد كانت هذه أول رحلة له خارج حدود الأندلس وآخرها على ما يبدو ، ولكن تتابع الفتن وتواصلها، وعدم تحقيق أمل الشاعر في سبتة جعلته يتركها عائداً إلى بلاد الأندلس فتغرب فيها وطرق أبوابها ، هذا الرحيل الدائم جعله يشعر بالوحشة والغربة[١] .

فابن دراج رجل محب لوطنه محب للاستقرار ، لذلك لم يعرف قط حياة الاستقرار والهدوء، فحمله هذا الأمر إلى الشعور بالغربة المكانية، يقول د/ أحمد هيكل [٢] : « ثم شيء أخير يلاحظ في طبيعة ابن دراج وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن، والإحساس بضرورة الحامي الذي يتحقق في ظله الاستقرار

(١) ينظر دولة الإسلام في الأندلس محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت ١٤٠٦هـ) مكتبة الخانجي القاهرة – ط ٤ . ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، جـ ١ ص ٧٠٤ .

(٢) الأدب الأندلسي . د / أحمد هيكل ص ٣٠٨ .

. «

فهناك شعراء كثيرون قد عبروا عن هذا النوع من الغربة ولكن يختلف عن شعراء الأندلس الذين اضطروا وأجبروا على ترك أوطانهم في ظل تلك الأوضاع المتردية التي أعقبت سقوط الخلافة وقيام الفتنة ، فهاجروا وتغربوا باحثين عن مدن أكثر أمناً واستقرارا في داخل الأندلس ، أو خارجها (١).

فإجبار ابن دراج على ترك بلده التي أحبها جعل حنينه وألمه ناتجاً عن تجربة إنسانية صادقة مليئة بالألم والأسى وخاصة أنه لم يجد ما كان يأمله من حسن الضيافة ، فعدم الترحيب بالضيف يعنى رحيله . وفي هذا يقول (٢) :

ومـــن يَمْنَـــعِ الضَّـــيفَ رَحْـــبَ الفِنـــاءِ فقـــد قـــادَهُ للفضـــاءِ الرَّحِيـــبِ

ولاشك أن عدم الترحيب به كان يترك أثراً يبعث في نفسه أقصى ألم مما يجعله يتذكر كل الصعاب وكل الخطوب التي وقع فيها أثناء انتقاله إلى ذلك الإقليم ، فيقول(٣):

فَلَـــئِنْ صَـــفَا مـــاءُ الحيـــاةِ لَـــدَيْكَ لـــي فَبمـــا شَـــرِقْتُ إليـــكَ بالمـــاءِ الصَّـــرى

ولَـــئِنْ خَلَعْـــتَ عَلَـــيَّ بُـــرْداً أَخضَـــرا فَلَقَـــدْ لبســـتُ إليْـــكَ عَيشـــاً أَغْبَـــرا

ولَـــئِنْ مَـــدَدْتَ علـــيَّ ظِـــلاً بـــارِداً فلكـــم صُـــلِيتُ إليـــكَ جَـــوّاً مُســـعرا

فما ذكره الشاعر هنا لم يكن إلا جزء من تطلعاته وأمانيه التي يريد أو يأمل أن يحققها في تلك البلاد ، ولكن حينما يصل لا يجد فيه ما كان يرجوه ، فيتابع رحيله وينتقل ، فيقول (٤) :

تغـــرَّبَ فِـــي الـــبلادِ فأَفْرَدَتْـــهُ فقيـــدَ العـــزِّ مجحـــودَ الـــذِّمامِ

هذه النبرة المأساوية التي تغلف هذه الكلمات تنقل لنا الإحساس الصادق الذي يغمر الشاعر بالحزن العميق ، فهو قد تغرب في البلاد ، وحيداً منفرداً ،

(١) ينظر : الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة . د / أشرف علي دعدور– مكتبة نهضة الشرق ٢٠٠٢م ، ص ١٢٣ .
(٢) الديوان ص ٤٧٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٧.
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فاقداً للعز ، ومضيعاً للأمان ، فيحاول ابن دراج أن يصور مدى تغربه ، لكن خيبة الأمل دائماً تلاحقه ، ولذلك فهو لا يقوى على الاستمرار في الإقامة في تلك البلاد ، فيترك الشاعر قرطبة متجهاً إلى سبتة التي كان يرأسها « علي بن جمود » آنذاك ، ولم يغفل الشاعر عن بث الشكوى ووصف نفسه بالغريب الذي نأى عن موطنه ، وانقطع عن الناس فتتابعت عليه الهموم والأحزان، يقول [١]:

غَريبٌ وكم غَرَّبَتْ راحَتا ... هُ فِي الأَرْضِ مِن وَجْهِ بكْرٍ بَتُولِ

ولكنه أيضاً بالرغم من هذا التغرب لم يجد ما كان يأمله فقرر الرحيل ولم ينس مرارة ثماني سنوات من الاغتراب والشقاء وخيبة الأمل، قضاها في رحاب العامرين الذين لم يجد منهم آذاناً صاغية فاتجه إلى بلنسية التي كان يرأسها مبارك العامري ومظفر العامري ، يقول في ذكره لبلنسية [٢] :

فإن وَجَبتُ للمَغْرِبَين جُنوبُها ... فداوي برَقراقِ السَّرابِ خُمارَكِ

وَأَوْري بزَنْدَيْ سُدْفَةٍ وَدُجُنَّةٍ ... إذا كانتا لي مَرْخَكِ وعفارَكِ

وإنْ خَلَعَ اللَّيلُ الأَصائلَ فاخلَعي ... إلَى المَلِكَين الأَكْرَمَين عِذارَكِ

بَلَنْسِيَةً مثْوى الأَمانيِّ فاطلُبي ... كنوزَكِ فِي أَقطارِها وادِّخارَكِ

سيُنبيكِ زَجري عن بلاءِ نَسِيتُهُ ... إذَا أَصبَحَتْ تِلْكَ القُصورُ قُصارَكِ

فترك ابن دراج لبلنسية دليل قاطع على أنه أصيب فيها بخيبة الأمل، ولم يستطع نسيان بلائه ، بل مازال البلاء والرحيل ملازماً له في كل مكان يقصده .

ويتوجه ابن دراج متابعاً سلسلة رحلاته ، واتجهت آماله هذه المرة إلى المرية التي كان واليها آنذاك خيران العامري ، فكان يرى في المرية الأمل الذي يزول به اليأس والإحباط الملازمان له في كل مدينة ينتقل إليها، فيقول [٣] :

---

(١) السابق ص ٧٦ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) السابق ص ٩٠ .

وَلا قَـــنَطٌ واليُســـرُ لِلعُســـرِ غالِـــبٌ وَفِـــي العـــرْشِ رَبٌّ بِـــالخَلائِقِ رَحْمـــانُ
ولا يَـــأْسَ مِـــنْ رَوْحٍ وَفِـــي اللهِ مَطمَـــعٌ وَلا بُعـــدَ مِـــن خَيْـــرٍ وَفِـــي الأَرْضِ خَيْـــرانُ
سَتَنْسَـــوْنَ أَهـــوالَ العـــذَابِ ومالِكـــاً إذَا ضَـــمَّكُمْ فِـــي جَنَّـــةِ الفَـــوْزِ رِضْـــوَانُ
مَتـــى تَلحَظُـــوا قَصْـــرَ المَرِيَّـــةِ تظفَـــرُوا بِبَحْـــرٍ حَصَـــى يُمنـــاهُ دُرٌّ ومَرْجَـــانُ

ولم ينس الشاعر مرارة الخيانة ، فقد أخرج من تلك البلاد ، وجعل الدهر هو الخائن ، وتوهم الشاعر أن بلاد العراق وخراسان قد رحبتا بقدومه ، والذي جعله يشعر بهذا الإحساس هو شعوره بالغربة في تلك البلاد ، يقول (١) :

فَـــإِنْ غَرَّبَـــتْ أرض المغـــاربِ مَـــوئِلي وأَنْكَرَنـــي فِيهَـــا خَلـــيطٌ وخِـــلانُ
فكَـــمْ رَحَّبَـــتْ أَرْضُ العِـــراقِ بِمقـــدمي وأَجْزَلَـــتِ البُشْـــرى عَلـــى خُراســـانُ
وإِنَّ بِـــــلاداً أَخرجَتنِـــــي لَعُطَّـــــلٌ وإِنَّ زَمانـــاً خـــان عَهـــدي لَخَـــوَّانُ

وغادر الشاعر المرية ، واتجهت أنظاره نحو « طرطوشة » ، ثم إلى شاطبة ، ولكنه لم ينل فيهما مطلبه أيضاً .

ولذلك رحل شاعرنا عن تلك البلاد فاتجه إلى سرقسطة واستدعى في هذه الأبيات شخصيات تاريخية توهم بأنه التقى بها أثناء رحلته ، فقد ورد مياه مأرب ووقف بخيله وسط جنة عبقر ، كما نظم قلائد من تاج كسرى وقيصر وأنس بقوم هود ، وأصاب من ملك سبأ ، ولقي الحارث الجفني وحط رحاله عند حاتم الطائي ، فيقول (٢) :

فَلَـــئِنْ تركْـــتَ اللَّيـــلَ فَـــوْقِيَ دَاجِيـــاً فلقـــد لقيـــتُ الصُّـــبحَ بعـــدَكَ أَزْهَـــرَا
ولَقَـــدْ وردْتُ ميـــاهَ مـــاربَ حُفَّـــلاً وأَسَـــمْتُ خيلـــي وسْـــطَ جنَّـــةِ عبقـــرا
وَنَظَمْـــتُ للغيـــدِ الحِســـانِ قَلائِـــداً مِـــن تـــاجِ كِســـرى ذِي البهـــاءِ وقيصـــرا
وحللْـــتُ أَرْضـــاً بُـــدِّلت حَصـــباؤُها ذَهَبـــاً يَـــرِفُّ لنـــاظِرَيَّ وجَـــوْهَرا

إلى أن قال :

(١) الديوان ص ٨٩ .
(٢) الديوان ص ١٢٨ .

كَـلا وَقَـدْ آنسـتُ مـن (هُـودٍ) هُـدىً ولَقيـتُ «يعـرُبَ» فِـي القُيُـولِ وحِميَـرا
وأَصَـبتُ فِـي «سَـبأٍ» مُـورَّثَ مُلكِـهِ يَسـبي المُلـوكَ ولايَـدُبُّ لَهَـا الضَّـرا
فكأنمـا تابَعـتُ «تُبَّـعَ» رافِعـاً أَعلامَـهُ مَلكـاً يـدينُ لَـهُ الـورى
(والحـارثَ الجَفَـنيَّ) ممنـوعَ الحِمـى بالخيـلِ والآسـادِ مَبـذولَ القِـرى
وحَطَطْـتُ رحْلـي بَـيْنَ نـارَيْ (حـاتِمٍ) أيـام يقـري مُوسِـراً أَوْ مُعسـرا

ولعل رغبة الشاعر في الهروب من واقعه السيئ وحظه التعيس في ظل الولاة الجفاة الذين أنزلوه في أقل المراتب ، ولم يلتفتوا إلى شاعريته المتقدة إلى استحضار رحلة قام بها في وحي خياله ، وهذه طريقة للتخلص من ضغوط نفسية حادة يمر بها الشاعر ، فهذه الرحلة تصور آمال ابن دراج ورغبته في الاستقرار المكاني الذي سيجلب بدوره راحة نفسية للشاعر « ولم يخب أمل ابن دراج في هذه المرة ، فقد أتيح له في سرقسطة جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة وفي بلاط التجيبي وابنه يحيى ، الذي قضى معه ابن دراج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة » (١) .

ويبدو أن ابن دراج بالرغم مما قد أتيح له من مقومات الاستقرار في سرقسطة إلا أنه لم ينس قرطبة التي نعم فيها بالرخاء ، فيحن إليها قائلاً ، يقول (٢) :

واجْـنَحْ لِقُرْطُبَـةٍ فَعـانِقْ تُرْبَهـا عَنِّـي بِمِثْـلِ جَـوانِحي وتَـرائِبي

ويقول أيضاً (٣) :

ودَولَـةٌ سـبقتْ آمالَنـا كَرَمـاً كَأَنَّمَـا قَـدْ تمنَّينـا تمنَّانـا
ودَعـوةٌ أعلـنَ الـدَّاعي فأَسْـمعَها مـن قَصْـرِ قُرْطُبـةٍ أَقصـى خُراسـانا

ويكاد ابن دراج يموت من الأسى والحزن دون أن يحقق أي طموح في تلك البلاد التي تواصت على تعطيله وإخراجه ، يقول (٤):

---

(١)الديوان ص ٧٢ .
(٢)السابق ص ١٦٧ .
(٣)السابق ص ١٣٢ .
(٤)الديوان ص ٤٥ .

وهـــا أَنـــذَا مَـــا إنْ أَمـــوت مـــن الأســـى بـــوَقْرٍ عَلَـــى وَقْـــرٍ وثِقْـــلٍ عَلَـــى ثقْـــلِ
وَلَـــيَّ النَّـــدى أَصْـــبَحتُ فِـــي دَوْلَـــةِ النَّـــدى كَـــأَنِّي عَـــدُوُّ البخـــلِ فِـــي دَوْلَـــةِ البُخْـــلِ
يُقَتِّـــلُ أَخْفَـــى اليَـــأْسِ أَحْيَـــى مَطـــالِبي لَيَـــالِيَ جَـــلَّ الْوَعْـــدُ عَـــن ريبَـــةِ المَطْـــلِ
وأُبْـــدي لِلَسْـــعِ الـــدَّبْرِ وَجْهِـــي مُنازعـــاً وَقَـــدْ فـــازَ غَـــيري ســـالِماً بجنـــى النَّحْـــلِ

وهكذا عاش ابن دراج غريبا متنقلا من بلد إلى بلد أخرى بحثا عن الأمل والهدوء والراحة ، لكنه لم يجد ما تتطلع إليه نفسه ، فعاش غريباً في بلاده ، ولم يجد من يحنو عليه ويزيل عنه هذا الشعور بالغربة سواء كانت نفسية أو مكانية أو سياسية .

الفصل الثانـي

الاغـتراب في شـعر ابن دراج

« المنحـى الفنـي »

أولاً : المعجم الشعري

ونقصد به لغة الشاعر ، بما تمثله من أنظمة وأبنية وما يشيع في جنباتها من ظواهر لغوية ، أو صيغ أسلوبية فضلاً عن ما تتمتع به من استرفاد التراث بمعطياته الدينية والأدبية .

« ومن الأمور البديهية في عالم الشعر أن لكل شاعر معجمه الذي يظهر لنا فيه شعوره وانفعاله ، ولعل هذا لا يكاد ينطبق إلا على الشاعر المبدع الذي لا نرى فيه صورة غيره ، وإن كنا نؤمن بوجودها في مسيرة الشاعر الشعرية قبل أن يتم له النضج »(١) .

ومن خلال تأملنا شعر الاغتراب عند شاعرنا ابن دراج تبين لنا ثراء معجمه الشعري ، وتنوع مادته وصيغه الأسلوبية ، وتمثل هذا الثراء في الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، حوارات من النصوص الأدبية القديمة، وجود التنوع في الأسلوب بين خطابي تقريري ، وإنشائي .

وسوف نعرض لأبرز تلك العلامات الأسلوبية فيما يلي :

١ – الاقتبـاس من القـرآن الكريـم والحديث الشـريف .

بداية تجدر الإشارة إلى أن النقد القديم قد نظر إلى الاقتباس أو التضمين محورين :

الأول : قصر مفهوم الاقتباس والتضمين على أخذ شاعر من شاعر آخر بحيث يكون هذا الشاعر مشهوراً ، أو التنبيه عليه إن لم يكن كذلك ، وهذا هو الوجه الغالب .

---

(١)شعر حسين سرحان – دراسة نقدية ، أحمد عبد الله صالح ، ط : ١ / ١٤١١ هـ - ١٩٩١م ، ص ١١٣ بتصرف .

الثاني : يضع الاقتباس والتضمين في سلة واحدة ويمنحهما مفهوما واحداً ، وكان ابن الأثير والنويري في طليعة رواد هذا التوجه الآخر : أطلق على التضمين مصطلحاً آخر وهو الإبداع ، وقصد به ما جاء في المحور الأول مع إضافة عبارة: « أن يوطئ الشاعر للبيت المضمن توطئة مناسبة بروابط متلائمة ، بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له » (١).

ولا مانع من أن ينضم التضمين إلى الاقتباس ليحتويهما إطار واحد أو ينسجا تحت مفهوم موحد ، شريطة أن يقوم المبدع بالتوظيف الجيد ، والتمهيد المتلائم ، وإلا بدا التضمين مقحما على السياق ، وصار أشبه بالأحجار الجامدة التي إن نقلت من مكان إلى آخر لا يحس المتلقي بأدنى أثر فني .

وحينما نتأمل قضية [التضمين – والاقتباس] من وجهة النظر النقدية الحديثة ، فإنها لا شك ستكون متعلقة بمفهومي الأصالة والمعاصرة أو حتى الحداثة .

والأصالة تعد استجابة واعية للقيم التراثية ، ضمن ظروفها الزمانية والمكانية مع محاولة الإضافة لتحقيق الإبداع .

أما المعاصرة فيبدو أنها ارتبطت عند البعض بالعصر أكثر من أي شيء آخر .

في هذا الضوء لا غرابة أن نجد بصمات آي الذكر الحكيم ظاهرة واضحة في شعر ابن دراج القسطلي ، وكذلك التأثر بالحديث النبوي الشريف .

ومن أمثلة اقتباسه من القرآن الكريم ليعبر عن الضيق والهم والفقر يقول (٢) :

وأنِّي فِي أفيـاءِ ظِلِّكَ أشْتَكِي شَكِيَّةَ مُوسى إذْ تولَّى إلَى الظِّلِّ

فهذا البيت مقتبس من قول الله – تعالى –في قصة موسى عليه السلام (٣) :

---

(١) ينظر : إبراهيم طوقان – دراسة في شعره ، المتوكل طه ، ط : ١ / عمان ١٩٩٢م دار اللوتس ص ٢٥٤ .

(٢) ديوان ابن دراج ص ٤٥ .

(٣) سورة القصص : ٢٤ .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وأما قول الشاعر (١) :

إِذَا ازْدَحَمُوا فِي ضَنْكِ شِرْبِي تَمَثَّلُوا بِأَسْبَاطِ مُوسَى حَوْلَ مُنفَجَرِ الصَّخْرِ

فاستمد الشاعر هذا المعنى من الآية الكريمة (٢) : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ .... ﴾

وقوله (٣) :

وإن أخصَبَتْ فِي زَرْعِ نعماكَ رَعْيُهَا فكَمْ قَدْ تخطَّتْ وادياً غَيْرَ ذي زَرْعِ

وإن أرفَهَتْ فِي بحرِ جودِكَ شِرْبُهَا فَمِنْ ظِمْءِ عَشْرٍ فِي الهجيرِ إلَى تِسْعِ

فالشاعر في هذه الأبيات يشير إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى (٤) : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ .

وكذلك قوله (٥) :

كَأَنْجُمِ يوسُفٍ عَدَداً ولكِنْ برؤْيَاهُ هَذِهِ بَرحَ الخَفَاءُ

فالشاعر هنا يتكئ على قول الله تعالى في قصة سيدنا يوسف (٦) : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

وقوله (٧) :

بِبالِغَةٍ للتَّرَاقِي حَدَتْهَا إِلَيْكَ وَصَاةُ القريبِ المُجيبِ

---

(١) الديوان ص ١٩٤ .
(٢) السابق ص ٢٥٧ .
(٣) الديوان ص ٢٥٧ .
(٤) سورة إبراهيم : ٣٧ .
(٥) الديوان ص ٣٢٨ .
(٦) سورة يوسف : ٤ .
(٧) الديوان ص ٤٦٨ .

فهذا البيت يتكئ فيه الشاعر على قول الله تعالى [١] : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾

ويفيض شعر ابن دراج القسطلي بكثير من الألفاظ والعبارات القرآنية ، وقد جاء ذلك نتيجة طبيعية لنشأة الشاعر الدينية .

كما نرى اقتباس الشاعر من الحديث النبوي الشريف حين يقول شاكيا ضيق الأرض به وبأبنائه فيقول [٢] :

وإنْ ضـــاقَ رَحْـــبُ الأَرْضِ عَـــنْ مُنْتَـــوَاهُمُ

فَرَحْـــبٌ لَهُـــمْ مَـــا بَـــيْنَ سَـــحْرِي إِلَـــى نَحْـــرِي

فالشطر الثاني من البيت تضمين من قول عائشة – رضي الله عنها – : « مات رسول الله ^ بين سحري ونحري » [٣] .

كما يوجد في الشطر الأول اقتباس من قوله تعالى [٤] : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾

ولم يقف هذا الأمر عند ابن دراج على الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية ، بل ضمن شعره بعضا من أشعار القدماء ، من ذلك مثلاً قوله واصفاً حاله وفقره [٥]:

وتحـــتَ أَجْنَحَـــةِ الإِشـــفاقِ حانِيـــةً حُمْـــرُ الحواصِـــلِ لا مـــاءٌ ولا شَـــجَرُ

فهذا الشـطر مضمـن من قول الحطيئـة مسـتعطفا عمـر بن الخطاب ﷺ [٦] :

مـــاذا تَقـــولُ لِـــأَفراخٍ بِـــذي مَـــرَخٍ حُمُـــرِ الحَواصِـــلِ لا مـــاءٌ وَلا شَـــجَرُ

وقوله [٧] :

---

(١)سورة القيامة : ٢٦ .
(٢)الديوان ص ٥٥٧ .
(٣)صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، رقم (٤١٨٤) جـ ٣ ص ٤٦٨ .
(٤)سورة التوبة : ١١٨ .
(٥)الديوان ص ٥٢٩ .
(٦)ديوان الخطيئة . برواية وشرح ابن السكيت ١٨٦ – ٢٤٦ هـ ، دراسة د / مفيد قميحة ، ط : ١ / ١٤١٣ – ١٩٩٣ م ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ص ١٠٧ .
(٧)الديوان ص ١٥٦ .

ودنـــا بـــهِ أَجَـــلُ الرَّحِيـــلِ كَأَنَّـــهُ أَجَـــلُ الممـــاتِ دَنَـــا بـــهِ المقـــدارُ

نشم فيه رائحة المتنبي حين يقول (١)

لَـــولا مُفارقـــة الأَحبـــاب مـــا وجـــدت لَهـــا المَنايـــا إِلى أَرواحنـــا سُـــبُلا

إذاً لولا الفراق لما كان للمنية سبيل إلى الروح ، فالفراق والبعد عن الأحباب سبب لدنو الأجل عند الشاعرين ، وهذا لا يعني أن الشاعر لم يتخذ معجماً شعريا خاصا به ، بل اتخذ لنفسه معجمه الخاص الذي اعتمد فيه على تكرار بعض الدلالات التي يفجر بها طاقاته الانفعالية القلقة التي تكتظ بها نفسه ، والذي يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف على معجم شاعرنا الخاص ومحاولة الإلمام بالكلمات التي شكلت ذلك المعجم في شعره.

---

(١)ديوان أبي الطيب المتنبي – شرح أبي البقاء العكبري المسمى التبيان في شرح الديوان – تصحيح مصطفى السقا وآخرون – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت جـ ٣ ص ١٦٣ .

٢ – أشكال التغاير الأسلوبي .

هناك خصائص أسلوبية تتراءى لنا بوضوح لا خفاء فيه أثناء تعرضنا بالقراءة والتحليل لشعر ابن دراج القسطلي ، وخاصة فيما يتصل بالشعر الذي يتناول ظاهرة الاغتراب ، منها « التلون الأسلوبي » .

أي : اتخاذ بعض الظواهر الأسلوبية سبيلا للتعبير عما في النفس ، وكأن الهدف من هذه الظاهرة يبرز في إقناع القارئ ، وحثه على القتال بشتى الطرق الممكنة ، كما تهدف أيضا إلى إقناع المتلقي ، ولذلك شاع لديه ذلك التلوين الأسلوبي الذي رصدته الأنماط الأسلوبية المختلفة . كالأسلوب الخطابي، والأسلوب الإنشائي من نداء ، واستفهام ، وأمر ، ونهي ، وقسم ، ودعاء ..... الخ .

فنراه في الأبيات التالية يصف رحيله ، ولكن هذا الوصف لم يكن تقليديا بل نشعر فيه بعمق التجربة وقوة الحزن والأسى ، فنراه يؤثر الأسلوب الخطابي التقريري ذا النبرة الجهيرة ، فيقول (١) :

مـــن كُـــلِّ مَفْجُـــوعٍ بتَرْحَـــةِ راحِـــلٍ ... لَـــمْ يُسْـــلِهِ طَمَـــعٌ بفَرْحَـــةِ آيـــبِ
كَذَبَتْـــهُ بارِقَـــةُ المُنـــى عـــن صـــادِقٍ ... مـــن ظَنِّـــهِ وصَـــدَقْتَهُ عـــن كـــاذبِ
ظُعُـــنٌ سَـــرَيْنَ الليـــلَ ضَـــرْبَةَ لازمٍ ... وسَـــرى إليهـــا الهَـــمُّ ضَـــرْبَةَ لازبِ
جَمُـــدَتْ عَلَـــيْهِنَّ القُلـــوبُ فَاَسْـــبَلَتْ ... فَـــوْقَ المحـــاجِرِ كُـــلَّ قَلْـــبٍ ذائِـــبِ
وتَخـــازَرَتْ عنهـــا العُيُـــونُ فـــأَبْرَزَتْ ... عـــن أَعْـــيُنٍ بِـــدمائِهِنَّ سَـــوَاكِبِ

فالشاعر يخاطب كل مفجوع برحيل عزيز عليه، ولم يفرح بقدومه، وكل من كذبته الأماني والأحلام ، فالخطاب خاص بطائفة متفردة ، وهي الطائفة المفجوعة برحيل عزيز عليها ، ثم عدل من هذا الخطاب إلى سرد قصة رحيل واغتراب تلك الطائفة .

هذا الانتقال السريع هو « أسلوب الالتفات » ، « وهو أحد المعالم

---

(١)الديوان ص ١٦٧ .

البارزة في لغة المغتربين يتفننون لذكر موطنهم القديم ، وموقعهم الجديد الحاضر ، وهو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر » (١) .

وفي استخدامه لألفاظ التضاد في قوله : « راحل – آيب – كذبته – صدقته .... » هذا دليل على القلق والاكتئاب .

وفي موضع آخر نراه يؤكد على المعنى نفسه ، فالشوق لا يميز بين غريب وغيره ، وأن المحب لا يصغى إلى من يلومه ويعاتبه ، ويتعجب الشاعر من تلك الخطوب والمحن التي كشفت ستره ، فهو مغترب عن وطنه ليس له وطن يستقر فيه فالعام عنده كيوم ، واليوم عنده كعام ، وقد صاغ أسلوبه هذا في أسلوب خطابي تقريري ، تلعب فيه الصيغة الإنشائية الدور الأساسي في التأثير على المتلقين من مثل التعجب والاستفهام ، فيقول(٢) :

فمـــا راع المشـــوقُ إلَـــى غريـــبٍ ولا أَصـــغى المحِـــبُّ إلَـــى مَـــلامِ
فيـــا عَجَـــبَ الخطـــوبِ يُـــبِحْنَ ســـتري وَقَـــدْ أَيْقَـــنَّ أَنَّ بِـــهِ اعتصـــامي

إلى قوله :

فهـــل حَـــوْلٌ يحـــولُ بـــلا رحيـــلٍ ولَـــوْشـــيئاً نـــراه فِـــي المَنـــامِ
وأفْجِـــعْ بـــالنَّوى فِـــي دارِ سَـــفْرٍ فكَيْـــفَ نـــوىً عَلَـــى دارِ المُقـــامِ

فالاستفهام في قوله : « حول يحول بلا رحيل » ليس القصد منه طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل ، ولكنه خرج من معناه الحقيقي إلى معنى القلق والحسرة . وهذا يعني أن الشاعر لم يستطع بعد تجاوز حدة القلق والتوتر، ويأمل أن يستقر في دياره ولو في المنام لكي يتخلص من دياجير الغربة .

ونلحظ (الاستفهام) أيضاً في قول الشاعر (٣) :

فهـــل آذَنَـــتْ هِجْرَتِـــي أَنْ تَـــرِيني عواقِـــبَ تَجْلُـــو كُـــرُوبَ الجَـــلاءِ
أَلَـــمْ يَتنَـــاهَ غُـــرُوبُ الغَرِيـــبِ إِلَـــى مَطْلِـــعِ الشَّـــمْسِ فِـــي الانْتِهـــاءِ

---

(١)الاغتراب في القصيدة الجاهلية دراسة نصية . د / محمود هياجنة ص ٩٤ .
(٢)الديوان ص ٢٣٠ – ٢٣١ .
(٣)الديوان ص ٣٣٨ .

ولم أَتَّخِـــذْ جُـــنْحَ لَيْـــلِ المحـــاقِ جَنـــاحاً إِلَـــى نُـــورِ لَيْـــلِ السَّـــواءِ

فهل استطاع الشاعر أثناء اغترابه ورحيله أن يتخلص من تلك الكروب والهموم ، ألم يحن الوقت لانتهاء تغرب ورحيل هذا الغريب واستقراره من غير اغتراب وهموم ، وترك حياة الارتحال .... ، أسئلة كثيرة تدور في مخيلة ابن دراج منها :

فهـــــل آذَنَـــــتْ هِجْرَتِـــــي ؟
أَلَـــمْ يَتَنَـــاهَ غُـــرُوبُ الغَرِيـــبِ ؟
ولم أَتَّخِـــذْ جُـــنْحَ لَيْـــلِ المحـــاقِ ؟

هذه الأسئلة تعبر عن واقع ظالم مكتئب يعكس لنا شخصية متوترة مكتئبة ، وهذه الأبيات تخرج نغمة حائرة تجسد معنى التيه والحيرة ؛ لتصور شخصية قلقة مضطربة تحمل بين ضلوعها الهم ، فالشاعر بهذه الاستفهامات يريد أن يصل إلى إجابة تكشف له حقيقة مصيره .

*** النـــداء .**

من الأساليب الإنشائية التي استخدمها ابن دراج النداء، يقول(١) :

يـــا مُـــدْنِيَ الأمـــلِ البعيـــدِ وإِنْ نَـــأَى ومُبَعِّـــدَ الخطـــبِ الجليـــلِ وإِن دَنـــا

ومنه قوله مخاطباً زوجه محاولا انتزاع موافقتها على الرحيل مستخدماً الأسلوب الخطابي إلى جانب النداء الذي كان أعلى وأقوى عند الشاعر أن يلبيه ويستجيب له وهو طاعة المنصور (٢):

أجاهِـــدُ الصَّـــبْرَ عنهـــا وَهـــيَ غافِلـــةٌ عـــن لَوْعَـــةٍ في الحشـــا منهـــا تُنـــاجِيني
يـــا هَـــذِهِ كيـــفَ أُعْطِـــي الشَّـــوقَ طاعَتَـــهُ وهـــذِهِ طاعَـــةُ المَنصُـــورِ تَـــدْعُوني ؟

ونرى الشاعر يتوسل في خطابه لزوجه بالنداء اللطيف العفيف مرة، وبالاستفهام التقريري المبني على الدليل والبرهان مرة أخرى ، وتارة يتوسل

---

(١)الديوان ص ٢٦٢ .
(٢)الديوان ص ٥٣٦ .

بالمقابلة والجناس والطباق ، ولا ينسى أن يلجأ إلى الله فهو الخليفة في الأهل والصاحب في السفر ، فيقول (١) :

يـــا رَبَّـــةَ الخِـــدْرِ اسْـــتَجِدِّي سَـــلْوَةً ... جَـــدَّ النَّجـــاءُ بهـــائمٍ بـــكِ لاعـــبِ
إمَّـــا شـــجيتِ بـــرحلتي فاستبشِـــري ... بجميـــلِ ظنّـــي مـــن جميـــلِ عـــواقبي
وَلـــئن جنيـــت عَلَيْـــكِ تَرْحَـــةَ راحِـــلٍ ... فأنـــا الـــزَّعيم لَهَـــا بفرْحَـــةِ آيـــب
هـــل أَبْصَـــرَتْ عينـــاكِ بـــدْراً طالِعـــاً ... فِـــي الأُفـــقِ إلّـــا مـــن هـــلالٍ غـــاربِ
وَاللهُ مـــن بعـــدِي عَلَيْـــكِ خلـــيفتي ... وخَليفـــةٌ هُـــديَتْ إلَيْـــهِ مَـــذاهِبي

ومنه قوله (٢) :

يـــا مـــن يُلاقـــي النَّـــازِلِين قِبابَـــهُ ... بجـــبينِ مَوْهُـــوبٍ وَرَاحَـــةِ وَاهـــبِ

وقوله (٣) :

هَلُـــمَّ إلَـــى حَيْـــثُ تُنْســـى الرَّزايـــا ... هَلُـــمَّ إلَـــى حَيْـــثُ تُؤْســـى الكُلُـــومُ
هَلُـــمَّ إلَـــى حيـــثُ يُـــؤْوى الغريـــبُ ... هَلُـــمَّ إلَـــى حَيْـــثُ يُحْمـــى الحـــريمُ

---

(١) الديوان ص ١١١ – ١١٢ .
(٢) الديوان ص ١١٣ .
(٣) السابق ص ٢٧٣ .

* **النهـي** .

وأسلوب النهي يشيع في قصائد كثيرة من شعره ؛ يعبر من خلاله عن إحساس القلق والتوتر فيقول (١) :

أَقُـولُ لَهُـمْ صَـبْراً لَكُـمْ أَوْ عَلَـيْكُمُ عَسـى العـيشُ مَحمـودٌ أَوِ المَـوْتُ عَجـلانُ

وَلا قَـنَطٌ واليُسـرُ لِلعُسـرِ غالِـبٌ وَفِـي العـرْشِ رَبٌّ بـالخَلائِقِ رَحْمـانُ

ولا يَـأْسَ مِـنْ رَوْحٍ وَفِـي اللهِ مَطمَـعٌ وَلا بُعـدَ مِـن خَيْـرٍ وَفِـي الأَرْضِ خَيْـرانُ

فالشاعر يحاول في هذه الأبيات أن يربط بين تجربته وتجربة أبنائه التي عايشوها في رحلتهم ، وبين موضوع المدح ، وقد وفق في محاولته ؛ لأنه جمع بين الموضوعين في دقة وسلاسة ، وساعده على ذلك تلك الاتكاءة الفنية التي استند عليها ، إذا استغل المحسنات اللفظية في تلوين أسلوبه ، كما عكس معانيه وأفكاره من خلال عدسة التصوير الفني .

فنراه يعتمد على أسلوب التقديم والتأخير ، فيرى اهتمامه بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ والخبر في قوله :

(واليسر للعسر غالب) ، (وفي الله مطمع)، (وفي الأرض خيران) مما ساعد على تجسيد الفكرة واحتواء المعنى ، كما تولد إيقاعا موسيقيا متناسقاً ومتوازناً ينجذب له السامع فيصغي مستمتعاً بنغماته .

ومن أسلوب النهي أيضاً قوله (٢) :

ولا مَطْلَـبٌ إلاّ مِهـادِيَ أَوْ حِجْـرِي ولا مَغْـرِبٌ إلاّ ضُـلُوعِيَ أَوْ صَـدْرِي

ويقول مستخدماً أسلوب « القسم » (٣) :

واللهُ جـارُكَ كَـم أَجَـرْتَ عِبـادَهُ مِـن كُـلِّ خطـبٍ لَـيْسَ مِنـه جـارُ

---

(١)الديوان ص ٩٠ .
(٢)الديوان ص ٥٥٩ .
(٣)السابق ص ١٥٣ .

ومنه قوله (١):

والله مَـــا زُفَّـــتْ ليحيـــى كتائِـــبٌ مُرَوِّعَـــةُ الإقـــدامِ مُرْهِبَـــةُ الجَـــرْسِ

* **الدعـــاء .**

ويقول في الدعاء (٢) :

فحَمْـــداً لمـــن رَدَّ النُّفـــوسَ فأَصـــبحَتْ لهـــم كالـــذي كُنَّـــا وَهُـــمْ كالـــذي كـــانوا

وقوله (٣) :

ســـلامٌ عَلَـــى مُسْـــتَوْدَعِ الـــرُّوحِ والـــنَّفْسِ وذُخْـــرِ غَـــدي مِمَّـــا انْتَحَبْـــتُ لَـــهُ أَمْـــسِ

من خلال هذا العرض يتضح لنا أن ابن دراج قد نوع في أساليبه حتى كانت ما بين تقريرية خطابية ، وإنشائية طلبية بجميع أشكالها وألوانها، مما يدل على قدرته على التعبير عن المأساة التي عاناها أيام الغربة ، والآهات التي شعر بها ، فلم يترك جانبا من جوانبها إلا وتحدث عنه بأساليبه المختلفة التي تجذب القارئ وتثير العواطف والمشاعر .

---

(١)السابق ص ٥١٠ .
(٢)الديوان ص ٥٨ .
(٣)الديوان ص ٣٠٩ .

٣ – الألفاظ ودلالتها .

* ألفاظ التضاد . يلعب التضاد في المعجم الشعري للشاعر دوراً فاعلاً في إبراز الصراع النفسي ، إذ أن ألفاظ التضاد تبرز دلالات الاغتراب ومعاناة الشاعر ، فتبرز ذلك الشعور بصورة واضحة من خلال التركيز على علاقة الضد بالضد ، ومن أمثلة التضاد في شعر ابن دراج قوله (١):

ومِنْ دوننا آنِساتُ الدِّيارِ نِهابَ الحِمى مُوحِشاتِ الطُّلولِ

فالشاعر هنا يقف بنا على ألفاظ ومعان متناقضة ، ففي الشطر الأول جاء بآنسات الديار حيث السعادة والأنس إلى جانب الاستقرار داخل الوطن والاطمئنان الذي يشعر به ، وفي الشطر الثاني جاء بموشحات الطلول حيث الوحشة والتفرد والقلق والانتقال والابتعاد عن الديار .

ومن أمثلة التضاد أيضاً قول الشاعر (٢) :

فِي كلِّ يومٍ مُنتوىً مُتباعِدٌ يرمي حُشاشَةَ شملِنا المُتقارِبِ

ففي الشطر الأول جاء بقوله متباعد حيث الاغتراب والتشتت ، وفي الشطر الثاني جاء بالشمل المتقارب حيث الاستقرار وجمع الشمل .

ومنه قوله (٣) :

فإنْ تضايَقَتِ الدُّنيا بمُغتَربٍ فَمُنذِرٌ بعدُ رَحْبُ الصدرِ واسِعُهُ

فجاء الشاعر بألفاظ متناقضة مثل الشطر الأول جاء بلفظ تضايقت وهذا يدل على الاغتراب الذي يعني الهم والضيق ، وفي الشطر الثاني جاء برحب الصدر وهذا دلالة على الاستقرار والأمان والرحابة والانشراح ، وهذا يدل على اضطرابات الشاعر النفسية .

*** كثرة الألفاظ الدالة على الأسى والحزن .**

ومن الظواهر اللفظية البارزة في شعر الغربة عند شاعرنا كثرة

---

(١) الديوان ص ٧٨ .
(٢) السابق ص ١١٠ .
(٣) الديوان ص ١٤٣ .

الألفاظ التي تدل على السواد الحافلة بالأسى والحزن ؛ لتوضح لنا بشدة عمق الألم والمعاناة التي تقوقع الشاعر في داخلها ، فأظهرت تلك الألفاظ لونا قاتماً وفقا لرؤية الشاعر وشعوره ، وسنحاول أن ندلل ببعض الأمثلة ، ومن هذه الألفاظ قول الشاعر (١)

فَسَـــرَيْتُ فِـــي حَـــرَمِ الأَهِلَّـــةِ مُظلِمـــاً وَرَفَلْـــتُ فِـــي خِلَـــعِ السّـــمومِ مُهجِّـــرا

فجاء الشاعر بلفظ الظلمة – التي تدل على العتمة وانعدام الرؤية ، وكذلك قوله « مهجرا » هذه الألفاظ تدل على ما يدور بداخله من الحزن والأسى والأيام المريرة التي يعيشها الشاعر .

ومنه قوله (٢):

ظُعـــنٌ أَلِفْـــنَ القفـــرَ فِـــي غَـــوْلِ الـــدُّجى وَتَـــــرَكْنَ مـــــأْلوفَ المعاهِـــــدِ مُقفـــــرا

والشاعر هنا أتى بلفظي الدجى والقفر ، وفي هذا إيحاء إلى السير في القفار الموحشة المظلمة ليلاً ، وهذا يدل على العذاب الذي ذاقه الشاعر أثناء اغترابه عن وطنه وأسرته .

ومنه قوله (٣) :

في جُـــنْحِ لَيْـــلٍ كـــالغُرَابِ أَطـــارَ لِـــي عـــن مُلتَقَـــى الأَحْبـــابِ كُـــلَّ غُـــرَابِ

فلفظ الليل وما يحويه من ظلمة وعذاب وتشبيهه لهذا الليل بالغراب يدل دلالة واضحة على السواد الحالك الذي يعيش فيه الشاعر وهو بعيد عن وطنه وأحبابه .

---

(١)الديوان ص ١٢٦ .
(٢)السابق نفسه .
(٣)الديوان ص ١٨٣ .

ومنه قوله (١) :

نُـــرَوَّعُ بـــالنَّوى والـــدُّعْرُ بـــاقٍ وَنُفْجَـــأُ بِالأَســـى والجُـــرْحُ دامِ

فجميع هذه الألفاظ تدل دلالة واضحة على سيطرة الخوف والأسى على نفس الشاعر ، وما يشعر به الشاعر وهو بعيد عن أهله ووطنه من ألم وحزن وفجيعة أثناء اغترابه . وغير ذلك الكثير والكثير من الألفاظ الحزينة اليائسة التي يعج بها ديوان الشاعر ، وخاصة شعره الذي يتحدث عن الغربة والاغتراب .

(١)الديوان ص ٢٣١ .

ثانيـاً : الصـورة الشـعرية .

الصورة الشعرية في أبسط تعريف لها « رسم قوامة الكلمات » (١) أو هي « التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير ، التي ينتقيها وجود الشاعر – أعني خواطره ومشاعره وعواطفه – المجرد من عالم المحسوسات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى ، في إطار قوي نام محس ، مؤثر على نحو يوقظ المشاعر في الآخرين .... وهي تختلف من شاعر لآخر ؛ لأنها مزيج من الأفكار والمشاعر والعواطف حسب تكوينه المفرد ، لا يشترك فيها أحد غيره كالشأن في بصمات الإنسان ، فلا تلتقي بصمة لإنسان مع بصمة أخرى.... » (٢) .

والألوان البيانية المجازية – ولاشك – من أهم الوسائل في تشكيل الصورة الشعرية ، ولكن هذه الألوان بذاتها لا تخلق مثل هذه الصورة ، إنما الاعتماد الأساسي في هذا المجال يكون على القوة الخيالية لاستجابة الشاعر أولاً، وعلى المدى الذي استوعب به وعي الشاعر الذي يراه أو يحس به(٣) .

« وهذه السمة تضع الفارق الفاصل بين الصورة الآسرة والصورة الساقطة ، فالصورة الآسرة من أهم خصائصها قوة الإيجاد ، فهي لا تقف عند المظاهـــر الخارجيـــة والتعبير المباشـــر ، وبذلك فرق الرومانتيكيون بين الذاتية المباشرة في الشعر الغنائي، والدلالة الإيحائية بالصورة الشعرية»(٤) .

كذلك يجب أن تكون الصورة الشعرية أصيلة بعيدة عن تعمد الاحتذاء والتقليد ، بحيث تبدوا فيها بصمات الشاعر .... والشاعر العبقري هو الذي يستطيع أن يجدد نسيج القديم، ويمنحه من العلاقات أو الإضافات الجزئية ما

---

(١)الصورة الشعرية سي – دي لويس ، ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرين – بغداد ١٩٨٢ م ، ص ٩٢ .

(٢)البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر . د / علي علي صبح - المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ط : ٢ ، ص ١١ – ١٣ .

(٣)الصورة الشعرية سي – دي لويس – ص ١٠٢ .

(٤)قضايا معاصرة في الأدب والنقد د / محمد غنيمي هلال – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة – بدون تاريخ ص ٦٠ .

يجعل الصورة على الرغم من قدم خاماتها ونسيجها تبدو كأنها جديدة تماماً ، كما يجب أن تبرأ الصورة من الإغراق في المبالغة ؛ لأن هذا الإغراق يعد تزييفا للشعور .

كما أن الصورة تخضع لبعض المؤثرات النفسية أي المتعلقة بنفسية الشاعر ، وقوة تخيله ، ومدى قراءاته ووفرة ثقافته واطلاعاته ، أو المؤثرات اللغوية التي ترتبط بالقالب التركيبي الذي تنصب فيه الصورة ، ومدى قدرته على الإيحاء والرمز ، أو دقته في نقل المكونات الداخلية إلى المتلقي ، أو المؤثرات الاجتماعية .

كما تثير الصورة الشعرية عدة إحساسات لدى المتلقي ، تتمثل في الإحساسات السمعية والبصرية والشمية واللمسية والذوقية مما يشرك المتلقي في رد الفعل والتفاعل معها ، وربما لأن الصورة الشعرية « هي نتيجة لتعاون كل الحواس وكل الملكات » (١) .

وهذا يجعلنا نشير إلى أن الصورة الفنية لا يمكن فصلها عن الرؤية الفكرية ، لأن كل منها يؤدي وظائف هامة لنجاح العمل الأدبي ، وهذه الوظائف لا تتم بشكل أحادي فردي وإنما تتمازج الرؤيتان وتتفاعلان وتتحدان للإيضاح والبيان والخلق الإبداعي المتناسق .

فالتوظيف الفني – بوسائله وأدواته الكثيرة – ركن ضروري ودعامة أساسية لإنشاء البناء الأدبي ، والأديب المتمكن يستطيع بمقدرته الفنية أن يسخر تلك الأدوات ويطوعها وفق ما يتطلبه التركيب أو السياق في بنية العمل الأدبي دون عسر أو تكلف يذهب برونق العبارة وأثرها في تشكيل الذوق الفني لدى المتلقي .

وعندما ننظر إلى ابن دراج من ذلك المنظور الفني نجده كغيره من الشعراء قد أمسك بزمام الأدوات الفنية ، وقام بتحريكها والتلاعب بها حسب

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . د / جابر عصفور – دار التنوير – لبنان ، ط : ٣ / ١٩٨٣ م، ص ٢٦٥ .

أدوارها ووظائفها المنوطة بها ، وفي عرضه لمشاهد المواقف الأسرية لم يخرج عن نطاق هذا الإطار الفني ، فهو وسيلته التي يمتطيها للوصول إلى مواطن أفكاره واستكشاف مجهولها وإماطة سدولها ، ويبدو أن ابن دراج كان مولعاً ولعاً شديداً بهذا الاتجاه ، والمتصفح لديوانه يخرج بنتيجة حتمية لا تقبل جدلاً أو نقاشاً ، وهي غلبة التصوير والصنعة الفنية على شعره بشكل عام ، وعلى شعراء الاغتراب بوجه خاص ، حيث تكثر في شعره الصورة الفنية ، وكذلك المحسنات البديعية التي تفنن في تشكيلها وتوظيفها ، ولقد كانت الصورة – أيا كان نوعها – المرآة العاكسة التي أظهرت بصدق ووضوح علاقة ابن دراج بأسرته وأهله وعاطفته نحوهم وهو في غربته ، فنراه يجد في الصورة ضالته فيمتطي صهوتها لتمهد الدرب الذي ينقل أفكاره إلى المتلقي، فمرة يتشبث بعنان الصورة التشبيهية، ومرة أخرى ينطلق في ميدان الصورة الاستعارية متلاعبا بألفاظ اللغة ودلالتها .

ومن الصور البيانية الجزئية التي اعتمد عليها الشاعر :

* **الخيال التقليدي .**

ففي مجال التشبيه نلحظ صورة التشبيه تدور حول معانٍ محددة لا يزال يكررها حتى تكاد تكون مستهلكة لديه كتمثله بالنجوم أو الكواكب وصفاً لأبنائه وأفراد أسرته .

يقول (١) :

للهِ مـــن عـــامٍ جَـــرى عَنْـــي بِـــهِ جَـــرْيُ الأَهِلَّـــةِ فِيـــهِ والأَقْمـــارُ
في أَهْـــلِ دَارٍ كالكَوَاكِـــبِ والنَّـــوى بَعْـــدَ النَّـــوى فَلَـــكٌ بِهِـــمْ دَوَّارُ

فابن دراج حين تمثل بالكواكب في هذا التشبيه لم يطلق العنان بهذا التمثيل ، بل اهتم بتقييده ضمن إطار يحدد زواياه ويرسم أبعاده ، وينشئ –في الوقت ذاته – تشبيهاً ثانيا ملائما للتشبيه الأول ومكملا له، فالكواكب التي التقطتها عدسة الشاعر مرتبطة بفلكها ولا يحق لها أن تحيد عنه أو تدور خارج حدوده ، وهي صورة عاكسة لأفراد أسرته الذين تتقاذفهم النوى ويتلقفهم التغرب وليس بمقدورهم كسر قيده أو الخلاص منه ، وتأتي صورة النجوم في شاهد آخر لتكشف عن جانب آخر من جوانب معاناة الشاعر مع أفراد أسرته ، يقول (٢) :

ومـــن يَسْـــمعْ بـــأَنَّ نُجـــومَ لَيْـــلٍ هَـــوَتْ مَـــعْ بَـــدْرِها ، فَهُـــمُ أُولاءِ

فظاهرة أفول النجوم ربما تكون معروفة ولكننا نستبعد هويّ البدر ؛ ولذلك يستعظم الشاعر نفسه ذلك الأمر ويقدم له بقوله : « ومن يسمع » ، أما الأمر أو الحقيقة التي يريد أن ينقلها الشاعر للمتلقي فهي سوء المعيشة وتدني الأحوال التي آل إليها مع أبنائه وبلوغهم الذل والهوان بعد المكانة الرفيعة والحياة الكريمة التي كانوا ينعمون بها ، فقد نفذ الأمر ووقع ؛ ولذلك يوظف الشاعر صيغة الفعل الماضي « هوت » بما يوحي به من معنى الوقوع العنيف، والانحدار المفاجئ السريع ، كأن ابن دراج يجد في تلك الدلالة ترجمة واضحة

---

(١)الديوان ص ١٥٧ .
(٢)الديوان ص ٣٢٥ .

لشعوره وتعبيراً صادقاً عن تغير حاله وتدهور أوضاع معيشته بعد تعرضه للاغتراب عن أهله وذويه .

كذلك من تشبيهات ابن دراج التي يصور فيها اغتراب أبنائه وغربتهم[١] :

بِسَبْعٍ كَسَبْعِ سَمامِ السَّمُومِ وَأَرْبَعَةٍ كَرُبُوعِ العَفَاءِ

فالشاعر يشبه اضطرار أبنائه إلى الرحيل والاغتراب بطائر السماني الذي عصفت عليه الرياح ، وهي رياح السموم لتجعله مضطراً إلى الرحيل .

ويقول أيضا معبراً عن حالة الاغتراب [٢] :

ألا هَلْ إِلَى الدُّنيا مَعادٌ وهلْ لَنا سِوى البحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوى الماءِ أَكْفانُ ؟

شبه الشاعر البحر بالقبر ، كما جعل الماء أكفانا ، وهو تشبيه بليغ يشعر فيه أن المشبه هو المشبه به ، وهذا دليل على شدة الضيق وإحساسه بدنو الموت منه ، ولذلك قال : «ألا هل إلى الدنيا معاد » .

ومنه قوله [٣] :

في جُنْحِ لَيْلٍ كالغُرَابِ أَطارَلِي عن مُلتَقى الأَحْبابِ كُلَّ غُرَابِ

ونستطيع القول أن التشبيه عند ابن دراج في قصائد الاغتراب يسير على النهج التقليدي الذي اعتمد على السهولة والوضوح ، وتعج قصائد الاغتراب عند ابن دراج بالعديد من التشبيهات الرائعة التي تضفي على المعنى الدقة والجمال .

---

(١)الديوان ص ٣٤٠ .
(٢)الديوان ص ٨٨ .
(٣)الديوان ص ١٨٣ .

ومن الاستعارات التي اعتمد عليها الشاعر قوله (١) :

بُـــدُنٌ فَـــدَتْ مِنَّـــا دِمـــاءَ نُحورِهـــا ... بِبِغائِهـــا فِـــي كُـــلِّ أُفُـــقٍ مَنحـــرا

نَحـــرَتْ بِنـــا صَـــدْرَ الـــدَّبورِ فأَنْبطَـــت ... قَلَـــقَ المضـــاجِعِ تَحْـــتَ جـــوٍّ أَكـــدَرَا

وَصَـــبتْ إِلَـــى نَحـــوِ الصـــبا فاسْتخلَصَـــتْ ... سَـــكَنَ الليـــالي والنَّهـــارَ المُبصِـــرا

خُـــوصٌ نَفَخْـــنَ بنـــا البُـــرا حَتَّـــى انْثَنَـــتْ ... أَشـــلاؤُهُنَّ كَمِثْـــلِ أَنْصـــافِ البُـــرَا

فهذه من الاستعارات البعيدة التي اتكأ عليها ابن دراج ، يقول د / إحسان عباس : « شبه البعير التي تنقلهم من مكان إلى آخر حتى أوصلته إلى ممدوحة بالهدي التي تنحر في الحج ، فهي خلقت لتنحر فواجهت الدبور ، فأثارت مضاجع القلق في ذلك اليوم الذي كان جوه مغبرا أكدر بدت فيه تلك البعير كأنصاف البر ، ثم مالت تلك البعير إلى قتل أو نحر الصبا فاستخلصت سكن الليالي والنهار المبصر » (٢) .

والملحوظ في هذه الصورة تكلف ابن دراج في طلب المعنى . يقول د / إحسان عباس : « ثم تضيق هذه الحلقة بين التكلف بالمعنى والتكلف بالفنون البديعية ، فإذا معاني ابن دراج ألغاز عسرة الحل يتطلب من القارئ تخيلاً في الفهم وشروداً في التصوير » (٣) .

ومنه قوله (٤)

وَلا أَلْقَـــوا عَصـــا التَّســـيارِ حَتَّـــى ... عَفَـــتْ حَلَـــقُ البِطـــانِ مِـــنَ اللِّقـــاءِ

فقوله « حلق البطان » كناية عن استبداد الأمر بهم ، فجاء جمال الكناية في إبراز ذلك المعنى في صورة محسوسة ومرئية . فالبطان هو الحزام الذي يشد تحت بطن البعير .

ويقول أيضاً (٥) :

وَتـــأْخِيرَ رِجْـــلٍ بِعـــدَ تقـــدِيمِ أُختِهـــا ... حِـــذاراً لِـــدهرٍ لا يُغَمِّـــضُ عَـــن حَربِـــي

(١) السابق ص ١٢٧ .
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة . د / إحسان عباس ص ٢٣٩ .
(٣) السابق ص ٢٣٩ .
(٤) الديوان ص ٣٢٥ .
(٥) الديوان ص ٩٩ .

فقوله : « تأخير رجل بعد تقديم أختها » كناية عن شدة تردده وحيرته .

ومن هنا نستطيع القول أن الصورة التشبيهية والاستعارية والكنائية التي جاء بها الشاعر استطاع من خلالها أن يبرز جانبا من جوانب معاناته النفسية ، وإن كانت الصورة بلغت في التشبيه مبلغاً عظيما مقارنة بالاستعارة والكناية ، فقد استطاع الشاعر من خلالها الكشف عن عمق إحساسه بالغربة والاغتراب .

* **الصورة النامية الممتدة .**

* **التشخيص .**

من الصور الممتدة التشخيص، وللتشخيص هدف يتعلق بالمعنى ؛ لأنه يجعل المعنى غير المحسوس محسوساً يدرك بحاسة من الحواس الخمسة ، وغالباً ما تشترك أكثر من حاسة في إدراك هذا المعنوي الذي صار محسوساً بالتشخيص ، وهذا يجعل المعنوي أقوى حضوراً كما يجعل إحساسنا بوجوده أقوى ، والشيء بالتشخيص يصبح بعد جموده أو غيابه عن الحواس حيا ، ذا نبض ونفس وحركة ، مما يجعل الصورة أقوى إيحاء وأقدر على هز المشاعر والتأثير في الوجدان .

ويظهر التشخيص في « الصورة فيما يخلعه الشاعر عليها من حركة وحياة وصفات ومشاعر إنسانية تمثل الطبيعة تمثيلاً دقيقاً ، وتجعلها ماثلة أمام حس المتلقي كأنه يراها ، فتجسد المدركات المعنوية ، وتشخص المعاني المجردة، وتحيل كل منهما إلى عناصر حية في التجربة تحمل أحاسيس الشاعر، وتتلون بعاطفته الخاصة ، كما تؤثر نفس المتلقي وتثير انفعاله » (١) .

ومن صور التشخيص في قصائد الاغتراب قول ابن دراج مصوراً غربته واغترابه يقول (٢) :

ومُغَـــرَّبٍ تبكـــي السَّـــماءُ لِشَـــجْوِهِ مِنِّـــي وتَلْتَهِـــفُ النجـــومُ لِلَهْفِـــهِ

إذ ينفث الشاعر في السماء روح الإنسان الذي يبكي ويحزن لرحيل ذلك الغريب ، كما جعل من النجوم شخصا يشتاق ويتلهف لرؤية ذلك الغريب ، فالسماء والنجوم تبكيان وتتلهفان مثل الشاعر الذي يشجو لغربته ، ويتلهف لرؤية أحبابه .

فالشاعر أجرى أحكاما من العقل والإحساس والشعور على

---

(١)قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية . د / أشرف نجا ص ٢٢٣ .
(٢)الديوان ص ٣٠٧ .

ما لا يعقل عن طريق التشخيص الذي أبرز تجربة الشاعر النفسية ، فشخصها في صورة حسية .

كما يحاول الشاعر – أيضا – تصوير تشرده ونيل النوائب والخطوب منه قائلاً (١) :

تُشَـــرِّدُ آفـــاقُ الـــبلادِ فتُؤْوونـــا وتَجْـــرَحُ أَيـــدِي النائبـــاتِ فتَأْسُـــونا

فالشاعر يجعل للنائبات أيادي كالإنسان ، يجرح بها ويبطش فبث الروح والحياة للنائبات .

وتتكرر صورة اليد – أيضا – إذ يجعل للظلم أيدي ، يقول (٢) :

ولا يَـــدٌ غـــيرَ أَيـــدِي الظُّلْـــمِ تَعرِفُنـــا ولا بغـــيرِ دُمـــوعِ العـــينِ نَنْتَصِـــرُ

فالشاعر يريد أن يبرر لنا مدى نيل الظلم منه ، فشخصه إنسانا يمتلك أيادي قوية يبطش بها ويظلم ، وهذا التشخيص نابع من إحساس ذاتي عميق .

ولا يمكننا هنا أن نتجاهل كلمة « أيدي » التي استخدمها الشاعر في صورته ، والتي يهدف من خلالها إلى « إقناع المتلقي » بفكره أن للظلم أيدي ، ولذلك لجأ إلى جمع الكثرة ، فأيدي على وزن (أفْعَل) ، وهو للكثرة ؛ ليدعى بها الشاعر شدة تمكن الظلم منه ومدى معاناته منه .

ولم يكتف ابن دراج في تصوير معاناته واغترابه في الخطوب فقط، بل نرى سمة التشخيص أيضا تتجلى في الرياح والسحاب والبرق إذ يقول (٣) :

يُهَـــيِّجُ فِيهَـــا زَفـــيرُ الرِّيـــاحِ مـــدامِعَ شَـــجوِ السَّـــحابِ المُخيـــلِ
وتلطِـــمُ فِيهَـــا أَكُـــفُّ البُـــرُوقِ خُـــدُودَ عِـــرَاصٍ علينـــا ثُكُـــولِ

فابن دراج جعل من مظاهر الطبيعة أشخاصا ليشخص حالته النفسية ، والتي استطاعت الصورة بدورها إبرازها لنا ، وفي صورة تشخيصية أخرى

---

(١)الديوان ص ٢٤١ .
(٢)السابق ص ٥٢٩ .
(٣)الديوان ص ٧٨ .

نلمس فيها الحركة الانفعالية للشاعر إذ يقول (١) :

حَتَّـــى بَـــدا الصُّـــبحُ مُشـــمَعِّاً ذَوائِبُـــهُ يُطـــارِدُ اللَّيـــلَ مَوْشِـــيّاً أكارِعُـــهُ

إذ شخصها في صورة الصباح الذي جعله ثوراً وحشيا أبيض يطارد الليل الأسود حتى انكشفت أكارعه ، إذاً الليل – أيضا – جعله حيواناً خائفاً من الصباح فطارده فجرى بسرعة مذهلة حتى تكشفت أكارعه.

فالشاعر جعلنا نستحضر الصورة ذهنياً ، وكأننا نرى ذلك الصباح الذي استحال ثوراً ببياضه، يطارد ذلك الليل الأسود الذي تكشفت أكارعه .

وتكاد ظاهرة التشخيص تطرد في شعر ابن دراج ، عبر مسيرته الفنية بصفة عامة .

---

(١)الديوان ص ١٤١ .

** المفارقة التصويرية

وهي ملمح تصويري كثير الورود في شعر ابن دراج ، والمفارقة تعني وضع الصورة وجها لوجه أمام نقيضتها حتى يظهر الفارق الشاسع بينهما ، فبضدها تتميز الأشياء .

وقد لجأ ابن دراج إلى استخدام مثل هذا الأسلوب ليظهر لنا أوجه المفارقة بين الحالتين وليبرز – أيضا – شدة معاناته وانفعاله ، ومن أمثلة ذلك قوله (١) :

وإن أعلقَتْ فِي حبلِ مُلْكِكَ حَبْلَها ... فحبلٌ من الأحبابِ مُنْصَرِمُ القَطْعِ
وإن أخصَبَتْ فِي زَرْعِ نعماكَ رَعْيَها ... فكَمْ قَدْ تخطَّتْ ودايا غَيْرَ ذي زَرْعِ
وإن أرفَهَتْ فِي بحرِ جودِكَ شِرْبَها ... فَمِنْ ظِمْءِ عَشْرٍ فِي الهجيرِ إلى تِسْعِ

وإنْ تُحْيِ يَا يَحْيَى حُشاشَةَ نفسِها ... فَنُغْبَةُ حَسْوِ الموتِ موشِكَةُ الجَزْعِ

فالشاعر هنا وفي هذه المقطوعة يقف بنا على صورتين متناقضتين، صورة الماضي الأليم عندما كان حبل شملهم منقطعا ، وكانوا في وادي غير ذي زرع ، والصورة المقابلة عندما أصبحوا في رحاب الممدوح فجمع شملهم وأخصبت حياتهم ، وبعد الظمأ والتلظي بنار الهجير ارتووا بأعذب ماء ، وبعد أن احتسوا الموت ، وتجرعوا آلامه أحياهم الممدوح بمنواله وكرمه وعطائه ، فهذا التقابل جعلنا نشاهد تلك الصورة في صورة مرئية ، فاجتماع الشمل وعدمه شخصه في الحبل ، والتنعيم بالخير ، جسده في خصوبة الزرع ، والفقر شخصه أيضا في الوادي اليابس الذي لا ماء فيه ، كما أنه جعل الموت كالماء الذي يحشى ويتجرع . أما العاطفة التي غلفت هذه الأبيات، فهي في اللون المتداخل الذي يولد قمتين نفسيتين .

الأولى : قمة في العبوس والقتامة والحزن ، وتتمثل في الماضي الأليم

---

(١)الديوان ص ٢٥٧ .

بذكرياته السيئة .

والثانية : قمة في الإشراق والتوهج والسعادة تعكسها الحاضر الذي يعيشه الشاعر بجوار الممدوح .

على أن هذه اللوحة قد اكتمل لها من عناصرها (الصوت ، اللون، الحركة) ما يقيم بناءها ، وينبئ بمدى دقة إحكامه ، وأن شاعرنا قد عاشها بنفسه ، وقد تمثل الصوت في صوت الخطى ، واللون كان ماثلاً في لون الزرع والخضرة . وكانت الحركة متجسدة في حركة الزرع حين يتمايل مع الريح حركة الحبل حين يتمايل يمينا ويسارا .

ومنه قوله أيضاً (١) :

فَبُدِّلْنَ مِنْ بَعدِ خفضِ النَّعيم ... بشَقِّ الحُزُونِ ووَعْثِ السُّهولِ
ومِنْ قِصَرِ اللَّيلِ تَحْتَ الحِجالِ ... بِهَوْلِ السُّرى تَحْتَ ليلٍ طويلِ
وَمِنْ عَلَلِ الماءِ تَحْتَ الظِّلالِ ... صِلاءَ القُلوبِ بحَرِّ الغليلِ
ومن طيبِ نفحٍ بنَوْرِ الرِّياضِ ... تَلظِّيَ لفحٍ بنارِ المَقيلِ
ومن أُنسِها بَيْنَ ظِئْرٍ وتِربٍ ... سُرى لَيْلِها بَيْنَ ذيبٍ وغَوْلِ
ومن كُلِّ مَرْأًى مُحيًّا جَميلٍ ... تَلقِّي الخُطُوبِ بصَبْرٍ جميلِ

في هذه الأبيات يوظف الشاعر التقابل بين صورة الاستقرار وصورة الرحيل في تركيب واحد ؛ ليبرز المفارقة بين الصورتين التي تحمل خلف هذه المقابلة إحساسا متناقضا يجمع بين الفرح والحزن المتمثل في خفض النعيم ووعث السهول، وبين صورة (قصر الليل تحت الحجال، وهول السرى تحت ليل طويل) وبين (علل الماء تحت الظلال، وصلاء القلوب بحر الغليل) وبين (طيب نفخ ، بنور الرياض) ، (وتلظى لفح بنار المقيل) وبين الإقامة بين (ظئر ، وترب) والسرى بين (ذيب وغول) .

فهذه المفارقة صورت اختلاط الكآبة بالفرح تبعا لتغير الحال فالأبيات تصور حالة نفسية نمّ عنها وصرح بها حالة الغربة والرحيل الدائم.

---

(١)الديوان ص ٧٨ .

على أن هذه اللوحة الرائعة توفر لها من عناصرها (الصوت ، اللون ، الحركة) ما يجعلها تنهض بأن تكون لوحة فنية رائعة تستحوذ على العقول ، وتستهوي الأفئدة .

أما اللون – فشاهدناه في ظلام الليل – ونور الرياض .

ولمسنا الحركة في سريان الليل بين الذيب تارة والغول أخرى وحركة المياه العليلة تحت الظلال .

أما الصوت فسمعناه في خرير الماء – صوت النار تتلظى في المقيل ، وصوت الذيب والغول .... الخ .

وتكون المفارقة التصويرية أعمق أبعادا وأقوى إيحاء حين يتوهج وجدان الشاعر ، فيصف حال النعيم وحال الضيق والفقر ، يقول (١) :

فَلَـئِنْ صَـفَا مـاءُ الحيـاةِ لَـدَيْكَ لـي ... فَبمـا شـرِقْتُ إليـكَ بالمـاءِ الصَّـرى

ولـئِنْ خَلَعْـتَ عَلـيَّ بُـرْداً أَخضَـرا ... فلَقَـدْ لبسـتُ إليْـكَ عَيشـاً أَغْبَـرا

ولَـئِنْ مَـدَدْتَ علـيَّ ظِلّـاً بـارِداً ... فلكـم صُـلِيتُ إليـكَ جَـوّاً مُسـعرا

إلى أن قال :

فَلَـئِنْ تركْـتَ اللَّيـلَ فَـوْقِيَ دَاجِيـاً ... فلقـد لقيـتُ الصُّـبحَ بعـدَكَ أَزْهَـرَا

فمن الواضح أن التقابل هنا يقوم على وصف حياة الشاعر القائمة على المتناقضات ، فجمع بين (صفاء الماء – ماء الصرى) وبين (برداً أخضرا) وبين (عيشاً أغبرا) ، وبين (ظلاً باردا ، وجوا مسعرا) ، وبين (ليل الدجى ، والصبح الزاهر) ، فنشأت هذه المفارقة التصويرية لحال النعيم وحالة الضيق والفقر ، فصفاء الماء دلالة على رغد العيش ، أما ماء الصرى فدليل على الحاجة .

وقد توافرت هذه اللوحة (اللون – الصوت – الحركة) . فنرى اللون في (البرد الأخضر) ، الذي يدل على الغني والخير وكذلك لون الثياب ، ولون العيش الأغبر الذي يدل على الفقر .

---

(١)الديوان ص ١٢٧ .

ونلمس الحركة في حركة اللبس والخلع ، حركة الليل وطلوع الصبح ، ونسمع الصوت في صوت الماء .

والشاعر هنا يضعنا أمام عاطفتين متناقضتين تماماً عاطفة مشرقة مبهجة تدل على الخير ورغد العيش ، وعاطفة غائمة حزينة تدل على الفقر والحاجة .

ومن شأن هاتين العاطفتين المتناقضتين ، أن يظهرا جمال الخير وأهله ، وقبح الفقر والمجاعة ، فبضدها تتمايز الأشياء .

ثالثـاً : البنـــاء الموسـيقي

الشعر يقوم على إيقاعات موسيقية تؤثر على قلوب السامعين « ومعلوم أن الموسيقى هي إحدى المقومات الفنية الضرورية للشعر ، وهي أداة بالغة الأهمية لكل شاعر في أي موضوع يطرقه » (١) .

ولهذا يقول ابن طباطبا : « وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه ، وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى ، وعذوبة اللفظ ، فصفا مسموعه ومفعوله من الكدر ثم قبوله واشتماله عليه ، وإن نقص جزء من أجزائه التي يكمل بها، وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ » (٢).

أما عن الإيقاع الموسيقي في شعر الاغتراب عند شاعرنا فقد وفره لنا عبر مصدرين :

أحدهما : ظاهري « خارجي » ممثل في وحدة الوزن والقافية ، والتصريع والتقفية في مطالع بعض القصائد .

ثانيهما : المصدر الداخلي ووفره لنا طريق حسن تجاوز الأصوات وإيثار الكلمات ذوات الأجراس الخافتة ، والذبذبات الهامسة ، إلى جانب المقابلات اللفظية والمعنوية ، وكثيرا ما وجدنا هذين المصدرين يتآزران ليحاصرا ملتقى شعره في مناخ نغمي أو موسيقي مكثف .

---

(١)التفسير النفسي للأدب . د / عز الدين إسماعيل – مكتب غريب للطباعة والنشر ، ط : ٤ / ص ٥١ .
(٢)عيار الشعر – ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ) ، ت / عبد العزيز ناصر المانع – مكتبة الخانجي – القاهرة ص ٢١ .

أولاً : الموسيقى الخارجية [الوزن والقافية] .

١ – الوزن :

تجدر الإشارة إلى أن شاعرنا قد عزف على أوتار البحور التقليدية المعروفة باتساع تفاعيلها وانبساطها وجلال العواطف التي تحتويها ، كما أن بها من الجلال والأبهة ما يسمح بإبعادها عن أجواء الخفة ، ويقارب بينها ، وبين أجواء الحماسة والفخر والاستعلاء والكبرياء والمقاومة والانتماء ، وما إلى ذلك مما يتجاور معه شعر الغربة عند ابن دراج القسطلي ، كما في نظمه على تفاعيل بحر الكامل [متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن] مكررة أو تفاعيل بحر الطويل [فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعلن] مكررة ، او تفاعيل بحر البسيط [مستفعلن – فاعلن – مستفعلن] مكررة ، أو تفاعيل بحر الوافر [مفاعلتن – مفاعلتن – مفاعلتن] مكررة .... الخ .

وسوف نضع بين يدي المتلقي بعض الأمثلة التي تدعم ما ذهبنا إليه، فمثلاً جاءت قصيدته التي يمدح بها المنصور بن أبي عامر على أنغام بحر الكامل ، يقول فيها (١) :

أَيَّـــامَ لا نَرْتَـــاعُ مِـــن صَـــرْفِ النَّـــوَى أَمْنـــاً ولا نُصْـــغِي لِنَعْـــبِ غُـــرَابِ

وأيضاً قصيدته في المنصور منذر بن يحيى يقول فيها (٢) :

بُشْـــراكَ مِـــن طُـــولِ التَّرَحُّـــلِ والسُّـــرى صَـــبحٌ بِـــرَوْحِ السَّـــفْرِ لاحَ فَأَسْـــفَرا

كما جاءت قصيدته في مدح المنصور بن أبي عامر على إيقاعات بحر الطويل ، وفيها يقول (٣) :

لَـــكَ اللهُ بِالنَّصْـــرِ العزيـــزِ كَفيـــلُ أَجَـــدَّ مُقَـــامٌ أَم أَجَـــدَّ رَحيـــلُ

كما جاءت قصيدته في « سليمان المستعين بالله أمير المؤمنين » من الطويل أيضاً يقول فيها (٤) :

---

(١)الديوان ص ١٦ .
(٢)الديوان ص ١٢٤ .
(٣)الديوان ص ٣ .
(٤)الديوان ص ٥٨ .

وأُنِّسَ شَمْلٌ بالتفرُّقِ مُوحِشٌ وحَنَّ خليطٌ بالصبابة حَنَّانُ

وعلى أنغام بحر الخفيف جاءت قصيدته التي يقول فيها (١) :

بَلَّغَتْ عَبدَكَ الخطوبُ مداها يومَ تبليغكَ النُّفوسَ مُناها

وعلى أنغام بحر البسيط ينظم قصيدته التي يقول فيها (٢) :

أَهَلَّ بالبَيْنِ فانْهَلَّتْ مدَامِعُهُ وآنسَ النَّفرَ فاستَكَّتْ مسامِعُهُ

وعلى أنغام بحر البسيط أيضاً يقول (٣) :

وَطِّنْ فؤادَكَ إن كانَ الرحيلُ غَدَا إنَّ الأَسى إلْفُهُ من بعدِهِمْ أَبَدَا

وعلى بحر المتقارب يقول في قصيدته التي يمدح بها علي ابن حمود (٤):

لَعَلَّكِ يَا شمسُ عند الأصيلِ شَجِيتِ لِشَجْوِ الغريبِ الذَّليلِ

ويقول على بحر المتقارب أيضا في رثاء السيدة أم هاشم أمير المؤمنين المؤيد بالله (٥) :

بَقاءُ الخلائقِ رَهْنُ الفَناءِ وقَصْرُ التَّدانِي وَشيكُ التَّنائي

أما بحر الوافر بتفعيلاته الثائرة والمزمجرة نظم عليها قصيدته في مدح ابن أزرق الكاتب يقول (٦) :

أَخُو ظَمَأٍ يَمُصُّ حَشَاهُ سَبْعٌ وأَرْبَعَةٌ وكُلُّهُمُ ظِمَاءُ

---

(١) الديوان ص ٦٩ .
(٢) السابق ص ١٣٧ .
(٣) الديوان ص ٣٥٤ .
(٤) الديوان ص ٧٥ .
(٥) الديوان ص ١١٩ .
(٦) الديوان ص ٣٢٧ .

ويقول أيضاً (١) :

وتبسُـــطَ منـــك للغُربَـــاءِ وَجْهـــاً يُجَلِّـــي عَـــنْهُمُ كُـــرَبَ الجَـــلاءِ

ولعلنا لاحظنا من خلال دراسة شعر الاغتراب عند ابن دراج القسطلي عدم تجديده في الوزن لكنه سار على عمودية القصيدة، أي على النمط الخليلي ، ومن ثم نؤكد أنه شاعر تقليدي غير متمرد على أحادية الوزن .

٢ – القافية :

هي الشق الثاني للموسيقى الخارجية ، وتعد قسيم الوزن في تشكيل الإيقاع النغمي داخل القصيدة ، فهي المرفأ الذي يستقر عليه في نهاية كل بيت ما تبقى من شحنات الشاعر العاطفية والانفعالية .

أما في الاغتراب عند ابن دراج نلحظ اعتماد الشاعر فيها بشكل كبير على الأصوات المجهورة التي تتسم بالقوة والشدة، ولعل الظروف القاسية التي عاشها الشاعر كانت وراء هذا الاختيار الموسيقي الصاخب ؛ ولذلك جاء هذا الانفعال شديداً ، فواكب بذلك الحالة الشعورية للشاعر ، كما أن للظروف التي نظمت القصائد لأجلها (المديح) سببا في ظهور هذا الصوت المجهور ، فهذا الصوت لابد أن « ترسم بإيقاعه الواضح أجواء أسطورية تواكب معاني القوة والشجاعة والشرف والكرم والبطولة والفروسية والمجد التي تخلع على الممدوح » (٢) .

ومن أمثلة القوافي المجهورة قول ابن دراج في إحدى قصائده متشوقاً لأسرته وهو في دار الغربة مخاطبا الربيع، لينقل شوقه ودموعه الساكبة قائلاً (٣):

قُـــلْ للرَّبيـــعِ اسْـــحَبْ مُـــلاءَ ســـحائِبِ فَـــاجْرُرْذُيُولَـــكَ فِـــي مَجَـــرِّ ذَوائِـــبي
لا تُكْـــدِيَنَّ ومـــن ورائِـــكَ أَدْمُعِـــي مَـــدَداً إِلَيْـــكَ بفَـــيْضِ دَمْـــعٍ ســـاكِبِ

---

(١)السابق ص ٣٢١ .
(٢)قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية – عصر الطوائف . د / أشرف نجا ص ٢٦٦ .
(٣)الديوان ص ١٦٧ .

ويقول متحدثا عن غربته [١] :

غريـــبٌ كســـاهُ الـــبينُ أَثـــوابَ مُـــدْنَفٍ وحَفَّـــتْ بِـــهِ الأَشـــجانُ حـــفَّ الولائـــدِ

فجاءت القافية على حرف الدال الذي يتسم بالشدة ، إضافة إلى حركة الكسرة ، مما أكسب القصيدة إيقاعا موسيقيا قويا ، وتزداد رغبة ابن دراج في انجلاء الأسى والحزن لتأتي القافية – أيضا – شديدة الانفعال والقوة إذا صيغت الأبيات حرف اللام المجهورة مع الكسرة ، يقول [٢] :

فلَعَـــلَّ غايـــاتِ الـــدُّجى أَن تَنْتَهِـــي وعَســـى غيابـــاتُ الأَســـى أَن تَنْجَلِـــي

أما القافية المهموسة فقوله يمدح ممدوحه بأنه أواه ، فجاءت القافية مبنية على حرف الحاء المهموس مع الكسرة ، فيقول [٣] :

وآوانِـــي إِلَـــى رُكْـــنٍ شَـــديدٍ وأَوْفَـــى بِـــي عَلَـــى أَمَـــلٍ مُتـــاحِ

ويتحدث عن أبنائه الذين يجوبون الصحاري مغتربين ، فكانت القافية على حرف الهاء والألف الممدودة ، يقول [٤] :

جُسُـــوماً أَقَلَّتْهـــا الرِّيـــاحُ فَلَـــمْ تَـــدَعْ لَهُـــنَّ مِـــنَ الأَرواحِ إِلّـــا أَقَلَّهـــا

---

(١)السابق ص ٤٠٥ .
(٢)السابق ص ٤١٧ .
(٣)الديوان ص ٤٩ .
(٤)الديوان ص ٢٢٣ .

ويتحدث ابن دراج عن آماله في جمع شمله ، فجاءت القافية مبنية على حرف السين المكسورة ، يقول (١) :

ويُجْمَعُ شملُ الوَصْلِ من فُرْقَةِ القِلى

ويُرْفَعُ بَنْدُ الوَصلِ من مَصْرَعِ النِّكْسِ

والملاحظ في تلك القوافي سواء المجهورة أو المهموسة اعتمادها على القافية المطلقة (٢) في معظم قصائد الاغتراب ، بينما تمثلت القوافي المقيدة (٣) والتي تناولت الحديث عن هذا الموضوع شيئاً بسيطاً لا يذكر ، وهذا يؤكد حرص الشاعر على اختيار القافية المطلقة أكثر منه على القافية المقيدة » (٤) .

وليس هناك ثمة شك أن القافية المطلقة تضيع بالحركة والموسيقى أكثر من غيرها ، وهذه الحركة تلائم الحالة الشعورية الانفعالية المصاحبة للشاعر وهي الإحساس بالاغتراب .

كما نلحظ اتكاء الشاعر على « التصريع » (٥) في بعض الأحيان ، ومن أمثلة التصريع الذي وقع في قصائد الاغتراب قول ابن دراج متحدثا عن غربته (٦) :

أَخَفْضاً نَوَتْ فِينا النَّوى ولَعَلَّها أَجَدَّ بِهَا طُولُ السُّرى فأَمَلَّها

وَحاشَ لأَصْداءِ الفَلا أن تَصُدَّها بِنا أَوْ أَضَالِيلِ الدُّجى أَنْ تُضِلَّها

وقوله متحدثا عن رحيله واغترابه (٧) :

---

(١) الديوان ص ٥٠٩ .

(٢) القافية المطلقة هي : ما كانت متحركة الروي – علم العروض والقافية . تأليف عبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦ هـ) دار النهضة العربية – بيروت ص ١٦٥ .

(٣) القافية المقيدة هي :ما كانت ساكنة الروي . السابق ص ١٦٤ .

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها . د / تمام حسان – دار الثقافة – طبعة ١٩٩٤م ص ١٧١ .

(٥) التصريع هو أن يغير صيغة العروض فيجعلها مثل صيغة الضرب. ينظر : القوافي تأليف القاضي أبو يعلي عبد الباقي التنوخي (ق ٥ هـ) ، تحقيق د / عوني عبد الرءوف – مكتبة الخانجي بمصر ، ط : ٢ / ١٩٧٨ م ، ص ٧٦ .

(٦) الديوان ص ٢٢٢ .

(٧) الديوان ص ١٣٧ .

أَهَـــلَّ بـــالبَيْنِ فانْهَلَّـــتْ مدَامِعُـــهُ وآنـــسَ النَّفـــرَ فاســـتَكَّتْ مســـامِعُهُ

وهكذا لا يخفى على القارئ ما أكسبه التصريع لتلك الأبيات من قيمة موسيقية رائعة إذ « أنه شاكل في أحوال كثيرة من الكلمتين الأخرتين في البيت كأنه يجعل له قافيتين « قافية داخلية – وقافية خارجية » ولم يدفعه إلى ذلك إلا أنه يريد أن يرتفع بالصوت في مقطعين متقاربين وهو لذلك يخرجه هذا الإخراج المنظم المقطع تقطيعا صوتيا دقيقاً »(١) .

ثانياً : الموسيقى الداخلية .

ويقصد بها الانسجام الصوتي بين الحروف والكلمات ، وهي لا تقل في أهميتها عن الموسيقى الخارجية .

*** التكرار :**

وهو إعادة النطق بالكلمة مما ينتج عنه إيقاعا موسيقيا ، ونخص التكرار هنا بالحديث ، لأن له دورا لا ينكر في اكتمال الإيقاع والجرس الموسيقي للأبيات .

وإذا نظرنا إلى الألفاظ التي يكررها ابن دراج نجدها تصف مدى توجعه وألمه ، ولهذا يكررها ليفيد بها معنى التكثير والتعظيم ومدى عمق اغترابه .

يقول ابن دراج واصفا عمق الأسى والحزن الذي يتجرعه في غربته (٢) :

وهـــا أَنـــذَا مَـــا إنْ أَمـــوت مـــن الأســـى بـــوَقْرٍ عَلَـــى وَقْـــرٍ وثِقْـــلٍ عَلَـــى ثِقْـــلِ

فالشاعر كرر لفظ « وقر » وكرر كلمة « ثقل » ليصف لنا عمق تمكن الحزن والأسى منه ليعطي البيت جرساً موسيقيا ، كما جعلنا نشعر بعظم الأسى وثقله الذي تجاوز المعقول بثقل على ثقل .

---

(١)الفن ومذهبه في الشعر العربي . د / شوقي ضيف – دار المعارف – مصر ، ط : ١٢ ، ص ٥٠ .
(٢)الديوان ص ٤٣ .

ويقول أيضا واصفا مدى حزنه وغربته حتى أن الشمس تشاركه هذا الحزن (١) :

لَعَلَّكِ يَا شمسُ عند الأصيلِ شَجِيتِ لِشَجْوِ الغريبِ الذَّليلِ

فكرر الشاعر كلمة « شجو » ليوضح مدى حزنه وتفاعل الغير معه – مما أكسب البيت إيقاعا موسيقيا حزيناً .

كما يصف الشاعر وداعه لأبنائه ؛ ولكي يوضح لنا حرارة ذلك الوداع عمد أيضاً إلى التكرار الذي أكسب البيت – أيضا – إيقاعا موسيقيا تشجو النفوس له ، يقول (٢) :

نُوَدِّعُهُمْ شَجْواً بشَجوٍ كَمِثلِما أَجابت حفيفَ السَّهْمِ عوْجاءُ مِرْنانُ

فكرر الشاعر لفظ « الشجو » ليوضح مدى معاناته هو وأبنائه ، ونلاحظ الجرس الموسيقي الذي نتج عن هذا التكرار وكأن صدى الصوت يتردد من داخل الشاعر ، ليدل على الألم والحزن الذي يعيش فيه الشاعر وأبناؤه .

* مراعاة النظير :

«هو الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير تضاد» (٣).

وقد عمد ابن دراج إلى توظيف هذا الفن في قصائده التي تناولت موضوع الاغتراب ، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر قوله في قلة حظه من العطاء (٤) :

ودَوحَةُ عِلمٍ فِي السماءِ غُصُونُها تَرفُّ بلا سُقْيا سوى بَغَشِ الطَّلِّ

نرى في هذا البيت التوازن مع الطبيعة التي تمثل في تلك الدوحة التي علت غصونها حتى وصلت إلى السماء مرفرفة ، ولكن كان المطر الذي يهطل

---

(١)السابق ص ٧٥ .
(٢)السابق ص ٨٩ .
(٣)علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع . د / بسيوني فيود – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط : ٢ ، ص ١٥٦ .
(٤)الديوان ص ٤٣ .

عليها قليلاً وضعيفا لا يوازي مكانتها ، فالمراعاة كانت بين « دوحة ، غصون ، سقيا ، بغش » .

ومنه قوله (١) :

ودَوْحَـــةُ اللهِ زَكَّـــى غَرْسَـــها فزَكَـــتْ أُكْـــلاً وظِلّـــاً وأَشْـــجاراً وأَغصـــانا

هنا نرى التوافق بين « دوحة ، غرس، ظل ، أشجار، أغصان » فالشاعر هنا يبحث عن عالم جديد مريح بعيد كل البعد عن حياة التغرب .

ويقول متحدثا عن حياة الأشجان (٢) :

إنْ تُســـعِدِ اليـــومَ أَشْـــجاني نوائِحُـــهُ فكـــم وكـــمْ ســـاعَدَتْ شَـــجْوي سَـــواجِعُهُ

ويقول عن غربته ورحيله (٣) :

قـــد طُيِّـــرَتْ غِرْبـــانُ كُـــلِّ مُغَـــرِّبٍ وغُـــرَابُهُمْ للبَـــيْنِ لَـــيْسَ يُطَـــارُ

« وتكشف البنية التركيبية لهذه الظاهرة السياقية عن علاقة التلازم المعنوي التي تتشكل من خلالها مفردات الصورة ، حتى تصير خلقا جديدا متآلفا يتلاءم مع حركة النفس في بحثها الدائب عن الانسجام والتوازن والتوافق في الطبيعة والمجتمع » (٤) .

---

(١)الديوان ص ١٣٢ .
(٢)الديوان ص ١٣٨ .
(٣)الديوان ص ١٥٧ .
(٤)قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية ص ٢٨١ .

الخاتمة والنتائج

بعد هذه المعايشة لعوالم وظواهر وجماليات شعر الاغتراب لدى الشاعر ابن دراج القسطلي ، فقد حاول هذا البحث أن يستنطق الاغتراب في شعره ، واستطعت من خلاله التوصل إلى عدة نتائج كان من أهمها :

١ – ظاهرة الاغتراب من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن أن نغفل عنها ، خاصة إذا وجدت عند شاعر كبير مثل ابن دراج القسطلي .

٢ – إبراز أهم المؤثرات والعوامل التي جعلت ابن دراج مغتربا من الطراز الأول .

٣ – قدرة الشاعر على امتلاك أدواته ، واستطاع أن يستفيد من تجارب اغترابه التي يسقطها في شعره ، وهذا يكسب شعره قوة وجمالاً وتأثيراً .

٤ – كانت ظاهرة الاغتراب عاملاً من عوامل بناء شعره ، فيمتاز شعره بالقوة والجودة وحسن السبك .

٥ – اتسعت دائرته الشعرية ، وغزر إفرازه الشعري إلى حد بعيد ، وتنوعت موضوعاته خاصة في شعر الاغتراب الذي تمثلت موضوعاته في : الغربة السياسية ، والنفسية ، والمكانية ، والاجتماعية .

٦ – عبر الشاعر من خلال ظاهرة الاغتراب عن همومه وقلقه

وألمه ، ومدى إحساسه باليأس والذل والضياع .

٧ – قصائد الغربة عند ابن دراج تثير الشجن والألم خاصة أن الشاعر لم يكتف بتصوير همومه واغترابه فقط ، بل كان إحساسه أعمق من ذلك بكثير ، إذ عمد إلى وصف اغتراب أبنائه وهمومهم ومعاناتهم ، ولعل هذا الوصف أو الإحساس الأسري من أهم ما تميز به ابن دراج عن غيره من شعراء عصره .

٨ – غلب على عاطفة ابن دراج الاضطراب والقلق الذين ظهرت إشعاعاتهما عن طريق استخدامه لبعض صور التضاد ، والسياقات المعنوية التي تبرز ذلك القلق .

٩ – تعددت في شعره الأنماط التصويرية ، كما نلحظ تأثر صوره الشعرية بالاغتراب ، إذ ظهرت تلك الصور كاشفة عن اغتراب الشاعر وغربته من خلال التشخيص ، والصور التقليدية ، والصور النامية الممتدة ، والمفارقة التصويرية .... الخ .

١٠ – كما نلحظ كثرة ألفاظ الحزن والأسى في شعره خاصة الذي يتحدث فيه عن الغربة .

١١ – كما كشفت الدراسة الموسيقية لقصيدة الاغتراب اهتمام الشاعر بالجانب الموسيقي ، الذي عكس بدوره – أيضاً – جانبا من جوانب معاناة الشاعر وهمومه مع إعطاء إيقاع صوتي حزين يكشف عن حالة الحزن والألم التي عاش فيهما

الشاعر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

١. ابن حزم الفيلسوف . تأليف محمد عبد الله عنان – مجلة العربي الكويتية – العدد ٦٨ – يوليو ١٩٦٤ م .

٢. ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي . تأليف حسان محمد حسان – دار الفكر العربي – بيروت .

٣. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. د/أحمد هيكل، دار المعارف ١٩٨٥ م .

٤. أدب الغرباء . تأليف أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق د / صلاح الدين المنجد – دار الكتاب الجديد – بيروت – لبنان ١٩٧٢ م .

٥. أساس البلاغة. الزمخشري، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى .

٦. أعمال الأعلام في من بويع قبل الإسلام من ملوك الأندلس . تأليف لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق / إبليفي بروفنال – دار المكشوف ، الطبعة الثانية – لبنان ١٩٥٦ م .

٧. الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن خلدون الروائية – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ، ط : ١ /٢٠٠٥ م .

٨. الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري . تأليف سمير سلامي – دار الينابيع – دمشق – الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

٩. الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى . تأليف عزيز السيد

جاسم – دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت – لبنان .

١٠. الاغتراب والإبداع الفني . د / محمد عباس يوسف – دار غريب للطباعة والنشر – طبعة ٢٠٠٤ م .

١١. البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر . د / علي علي صبح – المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

١٢. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تأليف ابن عذاري ، دار الثقافة – بيروت – لبنان .

١٣. تاريخ الأدب الأندلسي . تأليف د / إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

١٤. تاريخ الفكر الأندلسي . أنجل خثالث بالنشا – ترجمة حسين مؤنس – مكتبة النهضة العربية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

١٥. التفسير النفسي للأدب . تأليف د/ عز الدين إسماعيل – مكتبة غريب ، الطبعة الرابعة .

١٦. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . تأليف محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ، الدار المصرية للتأليف والنشر عام ١٩٦٦م .

١٧. جمهرة أنساب العرب . تأليف ابن حزم الأندلسي ، تحقيق / عبد السلام هارون – دار المعارف – مصر ، ط : ١٩٦٢ م .

١٨. الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث . تأليف د / ماهر حسن فهمي – معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠ م .

١٩. الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس – طبعة مركز الملك فيصل – الرياض – الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .

٢٠. دراسات أدبية . د / أحمد هيكل – الطبعة الأولى – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٠ م .

٢١. دلائل الإعجاز . تأليف عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، تحقيق / محمود محمد شاكر – طبعة دار المدني بجدة – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م .

٢٢. دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . تأليف محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

٢٣. دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي القاهرة – الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م

٢٤. ديوان ابن دراج . د / محمود علي مكي – الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م – المكتب الإسلامي .

٢٥. ديوان المتنبي . أحمد بن الحسين الكوفي أبو الطيب (ت ٣٥٤) شرح أبي البقاء العكبري – تعليق مصطفى السقا وآخرون – مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر – الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٦ م .

٢٦. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ابن بسام ، تحقيق / إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ .

٢٧. شعر حسين سرحان « دراسة نقدية » . تأليف د / أحمد عبد الله صالح المحسن – الطبعة الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

٢٨. الشعر والشعراء. تأليف أبو محمد عبد بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ .

٢٩. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . تأليف أحمد بن علي الفزاري القلقشندي – دار الكتب العلمية – بيروت .

٣٠. الصورة الشعرية . س دي لويس – ترجمة أحمد نضيف الجبائي وآخرين – بغداد ١٩٨٢ م .
٣١. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . تأليف د / جابر عصفور – دار التنوير – لبنان ١٩٨٣ م .
٣٢. طبقات الأمم . تأليف صاعد الأندلسي ، تحقيق / حياة العبد بوعلوان – دار الطليعة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٦ م .
٣٣. العرب في أسبانيا . تأليف ستانلي لين بول – ترجمة علي الجارم – جزيرة الروضة ١٩٤٤ م .
٣٤. علم البديع « دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع » تأليف د / بسيوني فيود – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .
٣٥. عيار الشعر . تأليف أبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ – ٩٣٤ م) ، تحقيق د / عبد العزيز بن ناصر المانع – طبعة دار العلوم ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
٣٦. الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة . تأليف أشرف علي الدعدور – دار نهضة الشرق – جامعة القاهرة – الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م .
٣٧. الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (١٩٤٥ – ١٩٦٢) تأليف عمر أبو قرورة – منشورات جامعة باتنة .
٣٨. الفن ومذاهبه في الشعر العربي. تأليف د/شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر .
٣٩. في دراسة التراث . د / محمود إسماعيل – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٠٤ م .

٤٠. قصيدة المديح في الأندلس « قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف » . د / أشرف محمود نجا – دار الوفاء للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – بدون تاريخ .
٤١. قضايا معاصرة في الأدب والنقد . تأليف د / محمد غنيمي هلال – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة .
٤٢. لسان العرب . تأليف جمال الدين أبو الفضل ابن منظور (ت ٧١١ هـ) الطبعة الأولى – دار صادر – بيروت .
٤٣. المطرب من أشعار أهل المغرب . تأليف أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) ، تحقيق / إبراهيم الإبياري .
٤٤. موسيقى الشعر العربي . د شكري عياد – دار المعرفة – القاهرة .
٤٥. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق د / إحسان عباس – دار صادر – بيروت ١٩٨٨ م.
٤٦. نقط العروس في تواريخ الخلفاء . تأليف ابن حزم الأندلسي ، تحقيق / شوقي ضيف – نشر جامعة فؤاد الأول – القاهرة – طبعة ١٩٥١ م .
٤٧. نهاية الأرب في فنون الأدب . تأليف أحمد بن عبد الوهاب القرشي ، وشهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٤٨. وفيات الأعيان ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية ، ط : ١ / ١٩٤٨ م .
٤٩. يتيمة الدهر . لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ١٣٧٥ هـ – ١٣٨٧ م .

فهرس الموضوعات

المقـدمـــــــة..... ٢٥٥
تمهيـــــــــــــــد :..... ٢٥٧
أولاً : نبذة عن عصر الشعر ٢٥٧
الحيـــــــاة السياســـــــــية..... ٢٥٩
الحيـــــاة الاجتماعيـــــة والاقتصاديـــــــة ٢٦٢
الحيـــــــاة الفكريـــــــة والأدبيـــــــــة ٢٦٤
ثانيا : أضواء على حياة ابن دراج : ٢٦٥
* نشـــــــأة ابـــن دراج :..... ٢٦٧
الفصـــــــــــــل الأول الاغـــــتراب في شـــــــعر ابـــن دراج« المنحى الموضوعي »..... ٢٧٠
مدخل : مفهـــــوم الاغـــتراب ٢٧٠
١ – الاغـــــــتراب عـــــن الـــــــذات : ٢٧٠
٢ – الاغـــــــتراب عـــــن المجتمـــــــع :..... ٢٧٠
٣ – الاغـــــــتراب عـــــن النفـــــس :..... ٢٧١
المحـــــــــــور الأول : الغربـــــــــــة السياســـــــــــية ٢٧٣

المحـــــــــــور الثانـــــــــــي : الغربـــــــــــــــة النفســـــــــــية..... ٢٨٢
المحـــــــــــور الثالـــــــــــث : الغـــــــــربـــــــة الاجتمـــــــــــاعيـــة..... ٢٩١
المحـــــــــــور الرابـــــــــــع : الغـــــــــــربـــــــة المكـــانيـــــــــة..... ٣٠١
الفصـــــل الثانـــــي الاغـــــتراب فـــــي شـــــعر ابـــن دراج« المنحـــــى الفنـــــي »..... ٣٠٧
أولاً : المعجم الشعري ٣٠٧
١ – الاقتبـــاس مـــن القـــرآن الكريـــم والحديـــث الشـــــريف ٣٠٧
٢ – أشـــكال التغـــاير الأســـــلوبي ٣١٢
* النـــــــداء ٣١٤
* النـهـــــي ٣١٦
* الدعـــــــاء ٣١٧
٣ – الألفـــــاظ ودلالتهـــــا ٣١٨
ثانيـــاً : الصـــــورة الشـــــعرية ٣٢١
* الخيال التقليدي ٣٢٤

* الصورة النامية الممتدة ٣٢٨
* التشخيص ٣٢٨
** المفارقـــــة التصـــويريـــة ٣٣١
ثالثـــاً : البنـــــاء الموســـــيقي ٣٣٥
أولاً : الموسيقى الخارجية [الوزن والقافية] ٣٣٦
١ – الوزن : ٣٣٦
٢ – القافية : ٣٣٨
ثانياً : الموسيقى الداخلية ٣٤١
الخاتمة والنتائج ٣٤٤
أهـــــم المصـــــادر والمراجـــــع ٣٤٧